امرأة على قيد سراب

رواية

دار ديوان العرب للنشر و التوزيع – مصر - بورسعيد

اسم العمل : امرأة على قيد سراب

اسم المؤلف : مصطفى بوغازي

الجنسية : الجزائر

التصنيف الأدبي : رواية

الترقيم الدولي : ٥ – ٥٣ - ٦٧٠٧ – ٩٧٧ - ٩٧٨

رقم الإيداع : ١٧١٣٧ / ٢٠١٩

تدقيق لغوي : مصطفى بوغازي

تصميم الغلاف : محمد وجيه

المدير العام : محمد وجيه

تليفون : ٠٠٢٠١٢١١١٣٢٨٧٩

ديوان العرب
للنشر و التوزيع

امرأة على قيد سراب

رواية

مصطفى بوغازي

ديوان العرب للنشر والتوزيع

إهداء

إلى الذي حرص على تعليمي ،
وغرس في نفسي حب الحرف العربي
و حثني على الاعتزاز به أبي " الطاهر" رحمه الله
و طيب ثراه وأحسن مثواه وأسكنه الفردوس.

****

الفصل الأول

تدانى الربيع مسرعا ، فقد كان الشتاء ممطرا، وظلت قمة الجبل تحتفظ ببقع من الثلج، يعكس تمازج بياضه بزرقة مشعة، بينما راحت أشعة الشمس تغازل الأحياء بدفء لطيف ، فيتصاعد بخار خفيف، يعبق برائحة الأرض، و تنساب الجداول رقراقة تتخلل الشعاب، كما تشق السواقي طريقها بين الحقول، فتتفتح ثغور الزنابق والرياحين بألوانها، و تشرئب نحو حزم النور في أبهة وخيلاء.

هنالك على مقربة من سيمفونية الطبيعة، تعالت أعمدة الدخان نحو السماء من سقوف أكواخ تنفث احتراق ما تبقى من مخزون الوقود، وتظل حوافها تعصر الصقيع قطرات، على منحدرات مائلة تبلل الجدران، وتنحت ثقوبا على الأرض .

لم يعد لأمي "راوية " أن تتجاوز عتبة الباب الخارجي للبيت، فقد أصبحت شابة يافعة مكتنزة الجسد، وعلى قدر لافت من الجمال، ترمقها النظرات في رواحها وغدوها ، بينما يتوجس أبوها من ابن عمها ، وهو يراقب حركاته ، هذا الذي لا يتوانى في الوصول إليها فقد وبلغ شغف حبه لها عتبة الجنون.

كان ميلادها فأل خير حيث جادت السماء بأمطار بعد إن احتبست لمدة طويلة، ساد أثناءها القلق وشحبت الوجوه ، واستهلك مخزون التبن ، وظلت المواشي في المراعي لا تجد ما يسد جوعها، لكن السماء أرعدت فجأة ذات مساء فانهمرت الأمطار، وجرى الماء في الجداول والوديان ولم تصل القابلة " عويشة" إلى دار جدي إلا على ظهر حصان عبرت على

ظهره بين ضفتي الوادي الذي كان يهدر ويدفع أمامه كل ما جرفه في طريقه .

استفاق أهل القرية على أشعة شمس دافئة ورائحة التربة تعبق بأنفاس الصباح، وخبر ازدياد بنت في بيت جدي "شعبان" كانت المولودة هي أمي التي سميت "راوية" تيمنا بهذا الارتواء ، فراحت الفرحة توسم الوجوه أينما اتجهت والابتسامات ترتسم عنوانا لهذا الابتهاج ، فلا شيء يدخل الفرح على القرويين مثل أن تجود السماء بالأمطار تبشر بالتفاؤل لموسم خصب.

لم يعد اسم أمي " راوية "يصدح في هذا المكان، كما كانت تسمعه في طفولتها، بل أصبحت تسمع مفردات أخرى للنداء يا " آو" يا "هاه" " اسمعي"، في هذا المجتمع الذكوري بامتياز ، ما إن تتبدى معالم الخصوبة في الفتاة ، وتبرز مفاتن الأنوثة على جسدها الغض، حتى تبدأ مظاهر الحصار، فتحرم من عبارات التدليل وزيارات الأقارب أو الاقتراب من الباب لترى العالم الخارجي ، وحدها باحة المنزل تفتح لها مساحة نحو الأفق و هي المكان الذي تتنفس فيه من الأعباء ، تحاور نفسها في صمت، أو تجد من يبادلها أطراف الحديث من النسوة فقد صارت " محجوبة" في منظور الموروث و العادات ولهذا تحجب عن الأنظار كما تقمع كل العيون التي تحاول أن تراها أو تترصد ظهورها.

لقد تقرر تزويج أمي ، و البث في مصيرها دون علم منها ... بينما كانت تقرفص أمام نار تعد ما يلزم للغداء سمعت جلبة في فناء البيت... أرخت ثوبها الخارجي الذي دست طرفه في حزام ، وأخذت تزرزر

ثوبها جهة الصدر بعد أن كان أعلاه مكشوفا يستفز النظر، ويفيض عم حوله .

سدت غيمة كبيرة باب المطبخ ، فحجبت ضوء الصباح استدارات فإذا بجدي ينتصب على العتبة، أشبه بكتلة قاتمة وهو يلتف في " قشابته " الداكنة، فقد اعتادت منه على وجه متجهم، ينم عن ملامح تعدت بواعث الحزم، إلى قسوة في المزاج، يمارس التسلط على كل من تقاسم معه العيش في هذا المكان.

باغتها وهي تصلح من شأن شعرها ، و ترسل خصلات منه تحت حواف الخمار ، وراء صواني الأذنين لتبعده عن الناصية ، بينما عكس لونه الساطع احمرار وجنتين كرمان مع وميض ألسنة النار ، فكان الوجه يفيض جمالا وإشراقا .

خاطبها بنبرة جافة :

- عليك بزيادة الوجبات، عندنا ضيوف بالكتاب، وعنصران آخران في مجموعة العمال .

أومأت برأسها دون أن تنبس بكلمة، وأخذت قضيبا من الحديد تحرك به الجمر، فازداد اللهب تحت قدر تعبق برائحة لحم تتلقفها الأنوف من بعيد.

لقد أنهكها التعب بعد كانت "أم السعد" تخدم هذا البيت ، وتتحمل أعباءه وتنظم شؤونه، بينما يتكفل ولداها التوأمان بقطيع الغنم، يرافقانه إلى الحقول المترامية، أو يتجهان به إلى سفح الجبل أين تتكاثر الأحراش، و الشيح ونبتة "الكداد" التي التصقت بالصخور، تفرز صمغا

تلوكه أفواه الرعاة علكة، وحين تختفي الشمس وراء هذا الطود الأشم، ترى القطيع عائدا على وقع حثيث للحوافر في منحدر شديد.
كان الصبيان متشابهين ،يصعب تمييزهما عن بعض ، ودأب جدي يعنفهما على قدر من المساواة، و يُحمّل وزر هذا لذاك مع كل شبهة، لغياب يقين في التفريق بين الملامح، إلى أن جاء اليوم الذي صنع الفرق بينهما، حيث ضرب أحدهما فشج جبينه .
كان ضياع خروف لحظة فارقة لتصنع الاختلاف بين اليتيمين ، وتتوافق مع شراسة ذئب جائع وقع الخروف فريسة سهلة بين أنيابه، وشراسة جدي في إيذاء التوأم فقد شج جبينه بعصاه وحين التأم الجرح، ارتسمت علامة داكنة فوق حاجبه، من أثر الكحل الذي استعمل في كبح النزيف، ولم يعد يختلط عليه الأمر بين موسى وعيسى وهو يفرح لهذا الانجاز.
هكذا جدي لا يترك شيئا للمفاجأة كما تقول أمي وهي تصدر ضحكات تخفي وجعا ، تتمرد بين طياتها دمعات لا تعرف ماهية المسافة الفاصلة بين الفرح والألم حين تقول : كنا نسميه في الغياب " عزرائيل" .
لقد كان منظرهما يدمي قلب أمي، وكثيرا ما تجهش بالبكاء وتختنق أنفاسها مع كل مظهر من مظاهر الإرهاب الذي يمارسه عليهما، حتى جدتي " عائشة " رحمها لم تسلم من بطشه فكلما حاولت صده وامتصاص غضبه عليهما يصيح في وجهها : " إني أ سد فاهويهما وفاه أمهما ، ألا يُعتبر ولاءهم لي رد جميل ؟ "

أتذكر جيدا يوم حكت لي أمي قصة اليتيمين، ولم تستطع كبح دموعها، واجتاحتها حمى أقعدتها في الفراش ليومين كاملين ، عرفت لحظتها لماذا سمتني "حنان" وبدرت إلى ذهني تساؤلات كثيرة ، "هل يمكن أن ينبع الحنان من هذه البيئة القاسية ؟" ، لا أتصور كيف جنبت الأقدار أمي ميراث نزر من هذه القسوة، وربما انفجر نبع الحنان هذا وتدفق، كرد طبيعي فانكسرت نفسيتها وأصبحت أكثر هشاشة، حتى إرادتها تخلت عنها لغيرها، كانت تروي لي كيف تعود اليتيمان على قسوة المعاملة، ووحشية التعنيف، وأصبحت عادة التبول في الفراش ملازمة لهما، فمال بياض ثيابهما إلى الاصفرار، بينما ظلت أقدامهما حافية، تشفق على زوج نعلين، لمواجهة برد الشتاء .

حين يستقر القطيع في الزريبة، يتخذ الصبيان من إحدى زواياها مأوى وملاذا، لا يفصلهما عن المواشي عدا حاجز من سيقان القصب، أين تتوزع بعض الأغطية البالية على أكوام التبن، كما تتشبث قربة هزيلة بوتد على الجدار ، بينما علق مصباح النفط بخشب السقف ، وغالبا ما تأتي "أم السعد" إلى هذا المكان بعد العشاء، وهي تحمل ما يسد رمقهما فتجدهما يغطان في نوم عميق، ترمقهما بنظرة كلها حسرة وألم، ولا عاصم وقتها لأن تجود عيناها بدموع ساخنة، تعمد إلى خضهما بلطف، لينقضا على ما في الصحن انقضاض جوارح الطير، وهما يقاومان شدة النعاس .

كانت تتحمل شتى صنوف القهر والإذلال، وهي تكابد شظف العيش مع ولديها، بينما يذهب ما يؤول إليها من محاصيل الموسم لإعالة أبويها

العجوزين، وذات صيف من موسم الحصاد، أتت النار على رزم التبن، فانهال جدي على التوأمين يشبعهما ضربا، ظنا منه أن أحدهما تسبب في الحريق، ساعتها لم تجد "أم السعد" بدا من التخطيط للهروب ليلا، حيث جمعت قواها واستنفرت شجاعتها لتقطع مع طفليها مسافة طويلة، وتطرق باب والديها ظهرا، بعدها لم تعد أي امرأة لأن تكون خادمة في هذا البيت تحت سلطة جدي فوجدت أمي نفسها تعاني الأمرين المعاملة والأشغال الشاقة التي تتناسل كل لحظة ولا تنتهي .

جال جدي ببصره في أنحاء المطبخ ذلك اليوم، ثم التفت إلى أمي التي شغلت نفسها عنه،وهي تحدق في نار متأججة، بينما ظل الاحتراق بداخلها لا يَبينُ له وهج أو دخان ، فقد رحلت جدتي التي كانت وحيدتها بين الذكور، وتسلطت عليها زوجة أب اجتمعت معه، على فظاظة في الطبع ، وسماجة في المزاج .

(تمتم بكلام ثم صمت وكأنما أحجم عن قول شيء ما).

كان سكان القرى المتناثرة شرق الجبل ، يعتمدون في حياتهم على ما تنتجه الأرض، وما توفره المواشي، زاهدين في كماليات الحياة، مستبشرين بمثل هذا الموسم ، حيث تجفف شرائح اللحم والخضر، ويخلل بعضها، كما يعتق السمن المملح ، تحسبا لشتاء يطبع قسوته على هذه البقاع.

لم يكن توجههم إلى البلدات القريبة ، إلا لشراء البن ووقود المصابيح، أو جلب المواشي إلى أسواقها الأسبوعية، بينما تتم مقايضة القمح والشعير مع البدو الرحل مقابل التمر في رحلتهم صيفا نحو التل ، ويبقى الباعة المتجولون على البغال ، مصدر التموين.

كان مبنى "الكتاب "الذي توسط القرية مكانا للتجمع حيث قبع تحت ظل شجرتين كبيرتين طاعنتين ، وفي أوقات معلومة يخرج الصبية منه ، وهم يتفرقون في كل الاتجاهات ، حيث لا يخلو المشهد من شغب ،أو عراك أو سباق محموم ، ليتفرغ المدرس "بشير" إلى كتابة التمائم ورقية المرضى ، أو عقد قران لم يشهد أن حضرته امرأة قط، كما هي الحال اليوم أين اجتمعت الأطراف على صفقة زواج أمي " راوية " من شاب اسمه " عبود".

كان هم جدي منصبا على أن تنأى ابنته بعيدا، فالشكوك التي ظلت تتبناها زوجته تجعل من بقائها بلا زواج مجازفة غير محمودة العواقب،وتفتح الأبواب على كل الاحتمالات .

أعتقد أن ذاكرة "بشير" تحتفظ بملامح أمي "راوية"في "الكتاب "، فالموقف الذي راحت تسرد لا أظن أنه ينسلخ من ذاكرته، فهو الفتيل الذي أوقد نار مشاعره نحوها وهي لم تكن سوى طفلة، كانت مع بقية الفتيات يشغلن حيزا في تلك الزاوية ، بينما تجمع الصبيان على مقربة منه، وكثيرا ما كان يدفعه اللاوعي لأن يغرق في جمالها مسترقا النظر، فتشعر بهذا الاهتمام الذي تجاوز الحد لتلوذ بالفرار من عينيه وهي ترفع اللوحة أمام وجهها ، تعتصم وراء أسوار التجاهل و تخفي ابتسامة تطرح في قرارها أسئلة مؤجلة، تنتشي بهذا التميز الذي جعل رمز القدوة في هذه القرية يبدي مقاومة ضعيفة أمام الربيع الذي راح يزحف على هذا الجسد بكل ألوانه ،كان يرى براعم النضج تتأهب للخروج من ظلال الطفولة إلى عالم كله انبهار ،فتسكن المذلة عينيه وتعلن عن رغبة حائرة

مبهمة،ويسقط الوقار صريعا يلملم شظاياه بين ترقب وانتظار،فمن سنوات لم تعد راوية ترتاد "الكتاب"بعد وفاة جدتي،وبقي في نفس بشير فضول كبير لرؤيتها وقد اكتملت فيها مباهج الأنوثة وازدادت حسنا.
أعتقد أنني تقمصت دور فضولية حد المبالغة، حيث رحت أنبش عن مشاعر أمي نحو مدرس"الكتاب "وأنا أحاول أن أفتك منها شبه اعتراف لاهتمام متبادل ، لكنها اكتفت بوصفه رجل علم يسترزق من علمه، فهو يأخذ أجرته نقدا ويناله نصيب من محاصيل الحقول، ليقفل عائدا إلى أهله في مناطق الشمال،غير بعيد عن نسائم البحر وعبق الأحراش و أشجار الفلين و الزيتون، ليؤوب مع قدوم الخريف محملا بالتين والزيت، بعضه لأعيان القرية وما تبقى فهو لحاجته .
اجتمع الرجال في "الكتاب" و هم يتلذذون بطبخ أمي "راوية"، وليشهدوا على عقد قرانها مع ذلك الشاب الذي دأب التنقل مع تجار جوال بين القرى مع بغليه المحملين بالبضائع، والذي استحسن فكرة الزواج من هذه القرية، لما وجد تلك الحظوة التي يتمتع بها ابن جهته "بشير" ولم يمانع جدي، حسب زعمه فهو يخاف أن يموت دون أن يطمئن على أمي في بيت زوجها.
لم يكن بمقدور أمي "رواية" فعل أي شيء إلا أن تندب حظها،وتستعد للذبح والسلخ كشاة وقعت بين يدي جلاديها ،فما إن سمع ابن عمها الخبر حتى عرج نحو المدينة ، ليعود في المساء مخمورا يترنح ،وهو يملأ الدنيا صراخا وعويلا ، يحوم حول الدار، يتعثر هنا ويضرب رأسه هنالك إلى

جدار من الحجر، ليهرول فجأة نحو بئر عميقة تداركته الأيادي في آخر لحظة.

كان المشهد بعيدا عن عيني أمي "راوية" لكن الصخب يتناهى إلى مسامعها، وهي لا تصدق كيف يحمل لها كل هذا الحب، وأين كان يضمره، فهو لا يبدي غير إشارات وإيماءات محتشمة، لأنه يدرك بطش جدي الذي يحمل له غلا كبيرا بسبب نزاع على معالم الأرض بينهما، يومها لم يكتف جدي وهو يرى موت "خالد"يتوزع بين جدران البيت وحافة البئر، ليحشو بندقيته بطلقين ناريين ويندفع خارجا ممتقع الوجه، تعلو عينيه سحابة من غضب لا يسلم منه أحد، ليجد "بشير" يقف في وجهه مباشرة، بينما لم يستطع أحد أن يعترض طريقه، ولم يجد بدا من أن يصب جم غضبه على أمي "راوية" ليشبعها ضربا مبرحا، ويربطها ليلة كاملة إلى جذع تينة توسطت باحة البيت، مهددا لو ذاع الأمر بين الناس لشرد الجميع، وأحرق البيوت كلها.

أتى "طارق" على هذه الصفحات من مخطوط "حنان" وفي نفسه نهم كبير لمواصلة القراءة، وفضول أكبر لمعرفة أين تتجه الأحداث في هذا السرد، فهي طرقت باب دار النشر هذا الصباح لتضع بين يديه عينة من كتاباتها بعد أن قدمت نفسها وبروح الدعابة تقول:

أنا توأم للكسل، لا أستطيع أن أعكف على رقن النص، سلمته لصديقة تتولى الأمر.

ليجب:

كنت أتيت بالمخطوط كاملا، وحين نقرأه لا يعجزنا رقنه على الحاسوب.

لتردف:

أخذت بكلام صديقك " مراد" مدير المطبعة ، تحدثنا في الهاتف، نصحني بالتوجه إليك فوجدت أن أحمل ما تيسر منه في هذه الصفحات . لم ألتق به من يومين، وإلا حدثني في موضوعك.

هذا رقم هاتفي (وهي تكتبه على قصاصة من الورق) يمكنك أن تتصل في أي وقت ، لا أهدف للنشر بشكل قطعي بقدر ما أريد أن أعرف رأيك، هذا ما سمعه مني السيد "مراد" أيضا.

كان لقاء خاطفا، حيث تبين له أنها في عجلة من أمرها فلم يسمع منها إلا جملا مقتضبة ، في حدود تبليغ المقاصد ، وهي تنفي عن نفسها صفة الكاتبة، وإنما هي مجرد محاولات للتنفيس لا غير كما تقول .

تمتد أصابعه إلى علبة السجائر، ليخرج لفافة تبغ يتحسس رشاقتها بين الإبهام و السبابة، بينما تستعجل اليد اليمنى لتنفث لهب قداحة يشعل حشوتها، في ذات الوقت رن جرس المكتب فجأة، ليتنبه "طارق" من انغماس في التفكير ، بعد أن لبى نداء إغراء التبغ فاختطفته إلى اللاشعور بين أجواء وأحداث هذا السرد، تدلف سكرتيرته الباب بعد أن أذن لها بالدخول... تترجاه بأن يسمح بمغادرتها قبل انتهاء فترة المساء ، لم يستفسر عن السبب ، أو يطيل في الحديث ، ولم يفكر كثيرا ، أومأ برأسه وعاد إلى المخطوط بين يديه، حيث خطت سطرا تحت تاريخ معين لتعود أول إلى الصفحة الموالية بعد كتابة عبارة " يتبع".١٩٧٧

.....

الليل على وشك أن يلملم ما تبقى من عتمته باحتشام، فقد أبهره نور؟بدر راح يرفل في أبهة من الكمال، انحدر قرصه نحو الغرب ، فبدا و كأنه يتأهب لأن يلامس قمة الجبل ، الذي شمخ في كبرياء ، يلهم الإنسان على مقربة من سفحه، صلابة الإرادة وقوة العزيمة .

قبعت بيوت القرية بين أحضان حقول واسعة،أين ظلت السواعد الفتية تذلل صلابة الأرض، ويقهر قسوة الظروف فيها عنفوان الشباب، بينما كانت خيام البدو الرحل تتوزع بين ضفتي واد غير ذي ماء، انتشرت على سطحه كتل من الحجارة، لم تستطع الصمود أمام السيول الجارفة، فاستقرت في هذا المنحدر على غير انتظام.

بعيدا ، تتراءى غابة كثيفة تتميز عن مدى المشهد بعتمة داكنة، هنالك جثمت منازل جدي وأبنائه ناعسة بهذا المنخفض المائل. كانت أصوات الجنادب والصراصير، ونباح الكلاب وعواء الذئاب ، تنتهك عذرية الصمت في هذا المكان، و بدا صرير الأبواب يتواتر هنا وهنالك، وتسمع طقطقات متفرقة توحي بأن الانتشار في الحقول بات وشيكا لنوبة أخرى من عمر الحصاد،فقد ضرب موعد زواج أمي بعد جمع الغلال وتخزينها.

كان موسم الحصاد في أقصى ذروته وحمولات السنابل تتوالى على ظهور الحمير، فتشغل البطاح ، تدرسها حوافر البغال والخيل، وتذريها الرياح، فترى أكوام القمح هنا وهنالك تزرع الابتسامة على الشفاه وتشرح الصدور، وتبعث الأمل في النفوس، فقد فَتحت" المطامر " ثغورها، لتتنفس أنسام الصيف فتلفظ ما تبقى في قعرها من حبوب للحاجة، وتختزن في جوفها غلة الموسم لبقية الفصول.

كانت ليالي أمي " راوية " في عز هذا الصيف طويلة جدا، فالنوم اختطفه من جفنيها والأرق استبد بها ، تحت وطأة تفكير لا يتوقف في معادلة مستقبل ، باتت أطرافها مجاهيل كما لم يرحمها تعب ظل يرافقها في يومياتها ،ومع تسارع عد تنازلي لموعد زفافها في أقل من شهر ،يسكنها الوجع في وحدتها، وهي تكتم ما يتأجج بداخلها .

تمددت على فراش من الحلفاء بأرضية غرفة ترابية، أما سقفها فهو من القصب المصفف على دعامات، تغطيه طبقة من الطين الممزوج بالتبن ، الذي شكل لبنة متماسكة بعد جفافه. فراح المكان يعبق برائحة التراب من كل جهة وتسكنه العتمة ، أين تعتصم أمي من عيني جدي الذي ظل يرمقها بنظرات حادة، تستهدف تبديد الرفض بداخلها وترويضه باستبداد وقهر بالغين.

كان الباب مشرعا بزاوية منفرجة، يعرقل مساره حجر،مخافة أن يكون عرضة لصفق مفاجئ،وليس بالإمكان أن يوصد في هذا الحر ،فلا وجود لنافذة يتسرب منها الهواء، فكانت ليالي الصيف المقمرة تختطف أمي إلى رحلات شرود، أين تعلق عيناها بقبة السماء تحاور النجوم ، فقد فلق ضوء القمر ظلمة الغرفة إلى نصفين من خلال فتحة الباب ، وعكس شاشة فضية على شكل شريط،فباتت أرضيتها مسرحا لخيال الظل، يعكس طيف كلب يمر بمقربة من الباب، وبين الفينة والأخرى، يصدر صوتا بين نوع من الصفير أو الشخير ، أو يطلق نباحا متقطعا لا تلبث حدته أن تزداد أكثر ، فلم يعد يضرب الأرض بأرجله في تسارع ملحوظ، أو يبتعد نباحه خارج البيت،أو يتسلل كما دأب من فجوة أسفل الجدار،

فقد سدت بالحجارة، فهو الكلب السجين الذي خول له حراسة الجهة التي تقبع فيها أمي.

كانت تتقلب في مكانها، ولا تنام إلا لوقت قصير وحين تشعر بنسمات الصبح الباردة توخز جسدها،تمد يدها فتطرح الغطاء على جسدها عسى أن تغفو ولو لمدة قصيرة ، لتنهض مع الخيوط الأولى للشمس، فثمة أشغال كثيرة تنتظرها كالعادة .

تستيقظ متثاقلة من الكآبة والإحباط ، لكنها تنتعش حين يلامس الماء يديها ووجهها وهي تدفع الجرة لأن تتخذ وضعا مائلا ليسهل الدفق ، بعدها تتجه صوب "النوالة"، وهي حجرة واسعة ،تعد مكان الطبخ ومأوى العنزة وجديها ، ومخزن الوقود من حطب الغابة، وقصب السنابل وروث الحيوانات المجفف ، وبعض الأواني المعدنية وأخرى من الخزف أو الطين، فما إن تلج الباب وتشعل فتيل القنديل ، حتى يدب النشاط في الجدي ويحتك بالعنزة التي تعودت على جولات من التناوب، بينه وبين أصابعها لتسترخي أكثر و لا تحبس حليبا عن الإناء، وحين تتقنع بمقدار معين، تعمد إلى نزع "الصرامة" وهي قصبة مثبتة بين فكيه ، مشدودة إلى ما وراء قرنيه ،ليستأثر بما تبقى في ضرعها ، تتجه بعدها إلى زاوية مظلمة فتستغرق وقتا في إذكاء النار ، وهي تنفخ بكل ما أوتيت من قوة، فتتراقص شراراتها مصحوبة بفرقعات خافتة تواكب احتراق الخشب الجاف ، لطالما وقفتُ في هذا المكان عند زيارة أخوالي، ولا أشك أبدا أن العيش فيه يفضي إلى الجنون أو بالأحرى هو مكان تزاحم البشر فيه العفاريتُ ومرتع ما وراء الطبيعة .

لا تتذكر أمي أي شيء في غمرة هذا السكون الذي راح يخيم على المكان، شعرت فجأة بحركة غريبة حولها، وكأن أنفاسا حارة لفحت رقبتها ، فتملكها الفزع وراحت تطلق صراخا متواصلا لتسقط مغشيا عليها بلا وعي .

كان صراخها المفاجئ في هذا الوقت مفزعا ومؤشرا على خطر محدق أو مصيبة حلت على حين غرة، لينهض الجميع مستنفرين لا يدركون السبب لكنهم على أهبة للتعامل مع الطارئ، فمنهم من حمل فأسا أو عصا، أما جدي فإن أقرب ما يستنجد به في مثل هذا الوضع بندقيته المعلقة على الجدار بمقربة من مضجعه .

استقبل "بشير" مدرس الكتاب في الدار " القبلية"، كان لها باب يفتح صوب الخلاء ، تقرضه الشمس كل صباح ،بينما ظهرت أمي "راوية" وهي تدخل من الباب المفتوح على باحة البيت تجر رجليها وتسند ثقلها على كتفي أخويها، ولا أحد استطاع تفسير ما حدث غير حالة من ذهول وتساؤلات كثيرة .

كانت عيناها غائرتين في محجريهما، تحيطهما هالة من الزرقة في تماس مع الأهداب ، تنبئ عن شدة الإعياء والتعب، بينما اختفى الاحمرار من شفتيها، واستحالتا إلى بياض شمع شفاف، ورغم هذا كله بقيت مسحة من الجمال الساحر على محياها.

بادر جدي : أنت ترى حالها ، لا نعرف إن مسها جن أو هي ضحية سحر لَعين، والذي يقلقني أن تكون على عتبة الجنون، فهكذا بدأت حالة

عمتها منذ عقدين، و كانت نهايتها في جوف بئر قريبة ، قادت الشكوك إليها في اليوم الموالي لاختفائها بعد بحث مرير.

يحرك بشير رأسه قائلا : لطفك يا رب .

ليواصل جدي : إننا نتجرع مرارة الألم... نكاد نكتمه حتى عن الجدران مخافة أن ينتشر الخبر.

يحملق"بشير" في وجهه وكأنه استفاق من اللاوعي في محاولة لأن يبعد شبح شبهة شك قد تراوده :

- سرك في بئر عميقة ..."أقسم لك ."

- لا تقل هذا ، ما توسمنا فيك إلا خيرا.

- ينظر إليه (مؤكدا) ... الحمد لله لا يعلم الحقيقة في هذه البقعة بعد أبنائي غيرك.

كانت نظرته تائهة ، وكأنه يستعطف الوفاء في أعماقه، لأن يدفن الحقيقة في غياهب من الكتمان ، مخافة أن تُفسخ خطوبتها إذا علم أهل العريس، فالأعراض التي تبدو على أمي كانت نفسها تلك ظهرت على عمتها، وظل الاعتقاد أن الجن سكنها في نفس المكان ، نفخ جدي أوداجه وأطلق تنهيدة طويلة، وهو يتخيل نظرات التشفي من ابن أخيه الذي عمل كل ما بوسعه لأن يبعدها عنه، وكيف ستتملص من المراقبة، وتنطلق بين بيوت القرية وفي الحقول حافية القدمين ، تعبث الريح بشعرها وتطلق زغردات بين الفينة والأخرى ، هكذا مرق إلى خيال جدي هاجس راح يتمثل له صورا مخيفة تذكره بأخته التي ابتلعتها البئر .

انتقل "طارق" إلى الصفحة الموالية ، كانت بيضاء بلا كتابة، أما التي تليها فكان حظها ليس أقل من السابقة، مما جعله يعتقد أن "حنان" تعمدت أن تترك فراغا لفكرة أو لحدث أرجأتهما إلى وقت لاحق، ما لبث أن تململ في مكانه وكأنه يبحث على وضع للجلوس يوفر له راحة أكثر، أسند ظهره إلى الكرسي متراجعا إلى الوراء، ليعدل عن ذلك وهو يؤوب إلى وضعه الأول الذي يكون قد أتاح له تركيزا أكثر.

حُشرت أمي " راوية "في هذه الزاوية من الغرفة، التي لا يتوانى جدي إلى تجديد طلاء جدرانها بالجير كل سنة، فهي مكان استقبال الضيوف من الرجال، فلا مجال أن تتجاوز خطواتهم عتبة بابها المؤدي إلى باحة البيت و الطعن في حرمته ، و من الواضح أن " بشير " هو أول رجل غريب يرى أمي وجها لوجه من غير أهلها، بعد سنوات أين كانت من بين اللواتي ارتدن "الكتاب"، فالمدرسة النظامية تبعد مسافة أميال مع انعدام وسائل النقل، وعلى علمها فإن ابنتي " الصادق" " شهرة " و"رفيقة " وحدهما زاولتا التعليم بالمدرسة ، كونه سكن بالمدينة وعاد إلى القرية لينجز مشروعا فلاحيا على أرض والده ، الذي توفي وترك ضيعة كبيرة ومواشي كثيرة.

نهض "بشير " ليقترب منها ، فما أن رآها عن قرب حتى وهن كل شيء فيه، وراح يفقد المقاومة أمام جمالها الآسر، ويحرص كل الحرص أن لا يظهر على ملامحه، ما يدعو للريبة والشك من اهتمام راح يندفع إلى السطح، ولا بأس أن يميل إلى منحى شفقة وأسف لحالها. مد يده لتستريح على جبينها الذي نضح عرقا، تجاوبت معه بنظرة ثم أسدلت جفنيها تحملق في الجدار المقابل، بدأ يرسل تعويذات ويقرأ قرآنا ، و يسوق كلاما كثيرا

حتى وهنت قوته، وبح صوته ، وخارت عزيمته ، بينما أمي بقيت لا تتكلم من ساعة الفجر ، و تغرق في شرود متواصل .

توقف " بشير " فجأة، وهو يمسح العرق المتصبب على جبينه بطرف كم ثوبه، زحف في هدوء على ركبتيه مبتعدا عنها، و همس كلاما جعل جدي يمسح خالي "مراد " و "حسان " بنظرة غريبة ويطلق تنهيدة من أعماقه وكأن خطبا جللا على وشك الحدوث، و أن الأمر من بواعث الصعوبة بمكان تُركت حينها أمي في زاوية الغرفة لتؤنسها النسوة، بينما غادر الرجال البيت وهم يرون " بشير " صامتا طول الطريق مطأطأ الرأس مما زاد في حيرتهم ، لتتناهى أصوات الصبية الذين ظلوا تحت حراسة "عمار" يوجههم ويساعدهم في الحفظ وهو يذكر هذا أو ذاك ، ليقرر "بشير " تسريحهم، فيندفعون على عجل منتشرين في كل الجهات .

لا أخفي عنك أن ابنتك أصابها مس من الجن، أو قل أن جنا عاشقا تمسك بها ، صَعُب علي استدراجه بالكلام ليغادرها.

ما إن سمع جدي هذا الكلام حتى ضم رأسه بين يديه وقد نكسه أرضا ، و أطلق زفرة من أعماقه ثم التفت إلى "بشير" محدثا :

هنا يتوقف ما يمكن أن تستطيع فعله، لكنك مطالب بفعل شيء آخر لا يتحمل التأخير، وهو أن تبعث بمن يأتي بابن قريتك " عبود" لنفسخ القران بشكل شرعي فما عادت تصلح ابنتي للزواج .

ألا تعتقد أن الإقدام على هذه الخطوة أمر فيه كثير من العجلة؟

_ الذي أقوله هو عين الصواب فموعد الزفاف على بعد أيام ولا أستبعد أنهم باشروا التحضيرات، لا أريد أن أغرر بهم ابنتي على خطى عمتها رحمها الله .

لحظتها خانته دمعة ساخنة ، فأشاح بوجهه حتى لا يسقط من صهوة رجولته ، فقد تعود على الصلابة والجلدة في أكثر المواقف التي تكسر ظهر غيره . وبعد أن ساد صمت جنائزي للحظة أردف " بشير " قائلا : شفاؤها إذا قدر لها الله ذلك، سيكون على يدي "آل مجذوب " هم أهل كرامات وطقوس غريبة، يمشون على الجمر ويلعقون الخناجر المحمية على النار ، ويأكلون شفرات الحلاقة، رأيت هذا في ‘إحدى حلقاتهم، جرني إليها الفضول ، ومن ذلك اليوم وأنا صديق لشيخ طريقتهم في الجذب ومعالجة المرضى .

إذا كنت ترى حالتها تستدعي هذا فلا مانع عندي فقط لا أريد أن تأتي جحافلهم عندي، و أن تقام الطقوس في بيتي . (يجيب جدي بعد أن قرأ موافقة على رأيه من عيون ابنيه) .

ظلت أمي تتردد على "آل مجذوب" كل سبت يضعونها تحت لحاف وسط حلقة من الرجال يطلقون أهازيج خاصة، يرافقها نقر على الطبول، وضرب على الدف، ومظاهر أخرى تقشعر لها الأبدان ، وتدعو إلى الدهشة والاستغراب ، وحدث أن حضر "بشير " هذه الطقوس ليدرك شيخ الطريقة أهمية أمي بالنسبة له.

لا تتردد أمي من وصفي أحيانا بقلة الأدب، وأن ولي وجه " قصدير "، حين لا أتورع في الهزل والضحك من أمور تعتبرها جادة، أو لا تستدعي أن

تكون مبعثا للتفكه والتنكيت، والذي غاب عن ذهني وأنا أحاول كتابة قصة أمي، وأتخيل أجواءها كما أجتهد في سرد ما سمعته منها بأن "بشير" هو أبي الفارس الذي حارب الجن وجيش "آل مجذوب" لطرده خارج جسمها، فكثيرا ما أمازحها حين تكون على خلاف معه قائلة :

يا ناكرة الجميل ، ويا أحلى معشوقة في العالم، ألم يحارب الجن لأجلك ؟

تبتسم وتضغط على شفتيها ، وأنا أعلم ما يتبع ذلك :

" وجه القصدير "

كان عمر أبي يكاد أن يكون ضعف عمر ها، فقد أحجم عن الزواج، مما دفع أقاربه إلى الشك في فحولته، وفي الحقيقة كان نجل أبيه الذي توفي، وترك له حمل إعالة أمه وإخوته وأخواته ، فكان همه رفع وزر الحاجة عن عائلته، ليظفر أخيرا بأمي كجائزة، بعدما تعافت وتحررت من عقد الارتباط بخطيبها الأول، وظلت محنتها بعيدة عن ألسن أهل القرية ، فقط أقسم الرجال في بيت جدي بكل يمين غليظة موجهين الكلام إلى زوجاتهن ، بأن مصير من تتجرأ على إخراج السر ، سيكون في منتهى القسوة ،و تصبح عبرة لكل من غرها الطيش وطال لسانها ، أما أبي " بشير " فأنا أول حبة في عنقوده، لم يجد صعوبة في إقناع جدي بمصاهرته والاتفاق على موعد الزفاف مع حلول فصل الربيع .

نهضت أمي هذا الصباح وهي تشعر أنها تعافت بشكل كبير،ووجدت من الضروري أن تستخرج من جوف الأرض جرة السمن المعتق ، فهي أثمن ما تقدمه النسوة في المناسبات،فقد حفظ "رياض" ابن خالي قصار السور من القرآن الكريم ، ولابد أن يحتفي بهذه المناسبة فتجرأت لأول

مرة ، بأن يكافأ "بشير" بفطائر من دقيق القمح مع السمن مشفوع بإبريق من القهوة ، وهي تعتقد أن هذا ليس بكثير ، نظير جهده في تنميق اللوحة بأشكال وخطوط وآيات ، و في الحقيقة هي رسالة قبول أو خضوع للقبول مع تسليم بإرادة القدر والنصيب في الزواج، وترى أنه يستحق بأن تكو ن مكافأة له على ما تكبده من متاعب وسعي في محنتها، خاصة حين تحدثها النسوة عن حالتها قبل الشفاء ، وأنها كانت قاب قوسين أو أدنى من الجنون الفعلي ، و عادت من عالم آخر .

خيل إلي قبل زواجهما أن الأيام مرت على أمي بسرعة، بينما كانت بطيئة على أبي ، وهو يستعجل حضن حلمه، لينعم بذلك الجمال الباذخ ، فلم تعد تلك الطفلة التي تختفي وراء لوحتها، حين يتيه في غمرة شرود يختطفه صوب جمالها، لقد أصبحت واقعا بلحمها ودمها، وهاهو الوقت يتدحرج إلى عتبة الموعد ، حيث زفت أمي إلى بيت الزوجية في منزل هو وقف أيضا لأهل القرية من زمن بعيد كمأوى لكل من تعاقب على تدريس الصبية في "الكتاب" ، ويبادر جدي بسخاء غير معهود فقام بترميمه وطلائه بالجير على نفقته ، كما فتح نافذة أكبر في جدار الغرفة، و فرش فناءه بالحجارة، و هب أهل القرية للمساعدة بأشكال متعددة فقد كان أبي يحظى باحترامهم ، وتقديرهم لمجهوده في تعليم أبنائهم.

****

الفصل الثاني

كانت أمي تلقى معاملة خاصة من أبي، يحتويها بكل مشاعر الحب، وكثيرا ما يترك الصبية في " الكتاب " ليقطع خطوات قليلة إلى البيت وهو يحمل لها هدية تَسلمها من أحدهم، فلا يصبر البتة أن تبقى عنده، بقدر ما يحرص أن يُدخل على قلبها الفرح والسعادة ، وكثيرا ما تكون هذه الهدايا من قطع الصابون بأنواعه، أو مناديل و أوشحة، أو من خضر وفواكه ودجاج وبيض، تهدى له كلما قام برقية المرضى وكتابة التمائم .

الساعة الحائطية ببندولها الذي يتأرجح بلا توقف ، ورنينيها الذي تصدره ،هي أغلى هدية استلمها أبي، من "خالد" ابن عم أمي يوم عقد قرانه على " شهرة " التي أصبحت معلمة بنفس المدرسة التي تعلمت فيها، وكأنه أراد لأمي أن تذكره في كل دقة، كما هدف بمبادرته تبديد كل توجس قد يجول بخاطر أبي، هذه الساعة التي صادف رنينها صرختي وأنا أجيء إلى هذا العالم ساعة الصفر في ليلة شتاء بارد، كانت " عويشة " التي قطعت الحبل السري لأمي هي نفسها من سحبتني من رحمها إلى هذا الوجود وهي تردد " أشار النبي بكمه سقط الجنين من أمه ".

كانت فرحة أبي بمجيئي كبيرة ، فقد كنت وجه سعد وفأل خير حسب تعبيره ، إذ وجد وظيفة للتدريس بمدرسة قرآنية في المدينة، وأصبح رحيلنا إليها مرتبطا بسعي أبي في أن يجد من يخلفه ، فقد أوجب على نفسه بأن لا تتوقف حناجر الصبية من حفظ القرآن يوما واحدا، وقد وفى بعهده حيث استلم " الكتاب " ابن خالته " عامر " خلفا له .

كانت المدينة عالما آخر ، وكانت أمي ترى في هذه الخطوة ولادة أخرى لها ، تيسرت سبل الحياة أمامها برفاهية كاملة، فالبيت موصول بشبكات

الكهرباء والغاز والماء، وأصبحت مضربا للحظ الوافر بين نساء القرية ، كما أصبح منزلنا مقصد الأقارب من أصحاب مواعيد الأطباء بالمدينة، ومن علقوا مع أشغالهم فباغتهم المساء، فانقطعت عنهم وسائل النقل ، أما أبي فأصبح يستفيد من أجرة شهرية بانتظام، بالكاد يحتاج إلي سحب المال من حسابه في البريد، فالهدايا والهبات من الأموال التي تغدق عليه من المتوافدين على بيتنا للرقية و طلب التمائم، جعلتنا ننغمس في بحبوحة من العيش الرغيد، وبدأ يكبر عنقود أبي ب "صالح" و " سعاد " و " رقية ، كما ذاعت سمعته بين الناس ، ليتحول منزلنا إلى أشبه بمؤسسة للخدمات وقبلة لكبار الأعيان والضباط ينشدون حظوظهم وحوائجهم في التمائم، كما قصدنا الأطباء والقضاة . وقد عُرفت في المدرسة بين زملائي بابنة رجل خدوم يشفي العلل ، ولتمائمه مفعول كبير في قضاء الحاجات، لصدق نواياه وحسن نية تسليم الزائر بكراماته، وأسمع أحيانا كلمات أخرى بأنه دجال ومشعوذ، ومن طرائف ما أتذكره ، أن فتاة عازية من جيراننا، سلمتني ورقة تحمل اسمها واسم عشيقها مع اسمي أميهما ، والمقصود هنا لا يحتاج إلى جهد لفهمه، لكن اللافت هو ورقة نقدية من فئة مائة دينار، كانت كافية لمصروفي اليومي مدة أسبوع ، فقد أغراني صرفها من الوهلة التي استراحت بزرقة لونها على راحة يدي، ليفتح إغراؤها تفجرا لعبقريتي في الاحتيال ، " ماذا لو أخذت قلم القصب ودواة الصمغ وكتبت طلاسم أو أي كلام ؟"

تبدو الفكرة مخاطرة غير محمودة العواقب، يكفي أن أفتح محفظة أبي لآخذ أي تميمة معدة مسبقا لأي زبون، ونفذت الأمر دون تردد ،

سلمتها ورقة مطوية تعبق برائحة الزعفران، وليس من الصعب علي أن أصف لها طريقة الاستعمال ، فأعلمتها وجوب وضعها في جلد أضحية عيد، وتعليقها سبعة أيام تحت الإبط الأيمن. فإلى حد الآن تظهر عملية الاحتيال محبكة جدا، لكن الذي لم أصدقه أن تكون أول تجربة لي في الاحتيال مثمرة مرتين ، فلم تمض أيام معدودة حتى طرقت الجارة باب بيتنا، تحمل كثيرا من الهدايا والفرح يتراقص في عينيها كفراشات أيار ، وأخذت تقبل أمي وتحملها آيات الشكر والامتنان من والدتها لفضل أبي عليهما، فقد علق العاشق في شراكها واستسلم لإرادتها،مستعجلا إتمام التحضيرات لعرسهما ، وقتها أسرعت بالخروج حتى لا أستفزها في نبش التفاصيل، بينما لم ترتب أمي في الأمر لأنها تعودت على هذا الوضع، و تسيطر على أبي سيطرة تامة، فلا وجود لظله في هذا البيت، كما لا تبدي أي غيرة من النساء اللواتي ينفردن به في غرفته، بل تحمل إليهن فناجين القهوة بابتسامتها العريضة، وأحيانا إذا وجدت حسناء ذات جمال قاهر للمقاومة، ومخافة أن تهدم جدار المناعة عنده، تظل أمي في ذهاب وإياب، إلى غرفته تفتعل مشاغل لتشتت تركيزه عليها. أتذكر أنني كنت أمازحها قائلة: يظهر أن أبي لم يذبح أمامك قطة في ليلة دخلتك، بل أنت من ذبحت أمامه فيلا (مقهقهة).

لتجيب : يا ابنة إبليس .. لو يسمع كلامك ستفقدين قيراطا أو قيراطين من قيمتك في قلبه .

وتردف مبتسمة : في الأيام الأولى من زواجنا ، كان يختطفني النوم و حين أنهض فجأة، أجده مستيقظا يحدق في وجهي، اطمئني لن أحتاج إلى قتل بعوضة (مبتسمة).

لم أكن أقل حظا في الجمال من أمي، فقد ورثت عنها عنينين سوداوين واسعتين ، تحيطهما رموش كحيلة وتلمعان بإشعاع خاص، يختصر عنوان أنوثة تكتسح قلوب الرجال بلا استئذان ، وترتسم على شفتي المنتفختين ابتسامة دائمة ، فقد كانتا في منتهى الاشتهاء، الأمر الذي اكتشفته وأنا في سن السابعة، فتواجدي بمدخل العمارة لساعات من اللعب، لم يفوت الفرصة على جارنا الذي تجاوز العقد الثالث من عمره، بأن يبدأ تمهيده للمأمول بذهابي إلى المتجر لأشتري له ما يلزمه، وحين أعود إليه، يرمقني بنظرات تمسح قوامي كله ثم يدس في كفي بعض النقود شاكرا، كنت امتنع في بادئ الأمر واعتبرها خدمة تقتضيها الجيرة، ولا تحتاج إلى مقابل، لكن مقاومتي تنزل إلى الصفر حين يتعلق الأمر بالنقود، ويشترك والداي في إدماني عليها، كيف لا ونحن نعيش حالة اغتراب في عقر دارنا ؟ فالغرباء في دخول وخروج، وأحيانا يكون طردنا خارج البيت بالحافز أمرا مألوفا، حيث تضع أمي في أيدينا قطعا من النقود ليلفظنا البيت إلى الشارع بحجة أن حالة مستعصية، تحتاج لتركيز من والدي ، هكذا وجدتني من السهل أن أكون فريسة سهلة ولا يحتاج قنصي جهدا كبيرا، كان الشاب يناديني " بطة" ، فما إن استوثق من مخدر النقود بأن مفعوله قد سري في كياني، حتى باشر في تجسيد مخططاته على خريطة جسدي،وتملكني بحيث أصبحت ألبي نداءه عن طواعية، كان أكثر

الرصيد من الشغف يصب في لثم شفتي ، السر الذي أدركته يوم أن زارنا ضابط متقاعد مع زوجته ، وطلب منه أبي شراء بعض العقاقير ، فما كان منه إلا أن يصبحني بغية أن أدله على الدكان، كنت بجانبه في السيارة،فلم يستطع لجم نظره الذي صار مشتتا بين قارعة الطريق ووجهي الذي تعرق من الخجل وتدفق الدم في وجنتي وطفت عليهما بقع حمراء ، كان يملأه ا لوقار لكن أنوثتي تذله أيما إذلال ليرتسم عناوين كبيرة في شاشتي عينيه. اشترينا ما يلزم كما ابتاع لي مثلجات باردة ،رحت ألتهمها بشفتي المنتفختين ليتشكل عليهما تماوج بلورات أشبه بجليد على سطح بحيرة تكتم أسرارها ، وفي لحظة عرج إلى أزقة ضيقة،التفت يمنة ويسرة ، ركن سيارته للحظات وهو يلثم شفتي بوهج حرارة أفقدتهما برودتهما المنعشة، فما كنت أعرف وقتها أن للحرارة انتعاش أيضا .

اشتد عودي وتفجر جسدي بأنوثة صارخة، وتوسعت مداركي بشكل كبير، وربما تخلصت من براقع الطفولة وأنا أقف على عتبات نضج ، لكن السذاجة التي ظلت تسكنني ليتها جعلتني أستعجل الخسارة قبل هذا، ساعتها كنت أجد ما يشفع لي عند الآخرين ، لكوني طفلة اغترت ولم تكن لها القدرة على استيعاب ما يدور حولها، رغم أن لا شيء طفا إلى السطح وبقيت تلك التجارب البسيطة طي الكتمان ، وظلت تركيبتي النفسية في النظر إلى الطرف الآخر تبدو غريبة واستثنائية، فمن تجربتي الأولى مع ذلك الشاب الذي كان عمره ضعف سني أكثر من أربع مرات، وجدتني أتقبل الفكرة.

كنت في حاجة إلى احتواء من الطرف الآخر ، وظل غياب الأب في حياتي ثغرة كبيرة وشرخا فادحا لا يمكن رأبه، فلم يكن يشكل أي معادلة في يومياتي تمس مشاعري وعواطفي بقدر ما كانت علاقته معي ترتبط بجيب سترته ، يمد إليه يده ليضع في كفي ما أحتاجه من مال وهو في عجلة من أمره ليخوض في انشغالاته ولا تكفيه ساعات النهار منغمسا في مشاكل الآخرين وأوهامهم وأمراضهم ، ليُختطف من أحضان أبنائه وزوجته وعلى مرأى من أعينهم ، ظل الجميع رهينة للأموال التي تأتينا من المصدومين في واقعهم ، والحالمين الذين حادوا الحياة واختاروا بعدا سرياليا يعيدهم إليها من الباب الواسع بطلاسم على الورق ، سُلبنا حريتنا وخياراتنا في الدنيا تحت ضغط الحاجة وإغراءات المادة، وانساق أبي يجرفه تيارها فأثر الاستقالة من التدريس، ليتفرغ كلية لزبائنه في بيتنا الجديد الذي فقد حرمته، تتجمع النعال وراء بابه يوميا للجنسين وبكل المقاسات، فهو خلية مصغرة للمجتمع ، وبما أن لا شيء محظور في السياسة ولا علاقة لها بالنظافة ، فقد كان بيتنا محلا غير رسمي لاجتماعات لبعض رجال الزوايا والانتهازيين والفاسدين ، والمغرر بهم ببريق الآمال الكاذبة في المناسبات الانتخابية ، أسماء خرجت من الباب الضيق للسياسة بفضائح فساد مثل حاكمنا ، لتعود إلى الواجهة من جديد ، و لا ينفي البعض عن بيتنا بأنه جحر للشعوذة والاحتيال ، كما تعقد فيه صفقات مشبوهة في المال والسياسة ، فقد شكلت سمعة أبي وعلاقاته شبكة عنكبوتيه لخدمة المصالح، هذا "سعيد" كان إماما وصديقا لأبي ظفر بمنصب نيابي فاختفى بعدها مظهر العباءة البيضاء

والخف الذي يسحبه بقدميه، ليفسح المجال للبذلة الأنيقة مع ربطة عنق زاهية اللون، وسيجارة "المارلبورو" ، وقد انغمس أيضا مع المنغمسين في ليال حمراء ، أما "رضوان" الذي نجا بصعوبة من محاولة اغتيال تعرض لها من طرف شخصين نصب عليهما وسلب منهما أموالا، فراح ينسب الحادثة إلى جماعة إرهابية ، ويستثمر الواقعة في رفع رصيده من الوطنية المزيفة ، ويمد رجليه تحت قبة البرلمان، أما "مصباح "فهو ضابط كبير في المخابرات أبتلي بالإدمان على الخمر، ولم يستطع الإقلاع على معاشرتها، وظل هاجسه الأكبر أن يتربص به الإرهابيون في حالة سكر ، فيكون طريدة سهلة المنال فيختطفونه ، أو تخترق رصاصات جمجمته فينفجر رأسه إلى شظايا ، وترتسم دماؤه على الأرض وكأنها رشت بخرطوم مضغوط ، عمد أبي إلى كتابة بعض الطلاسم على زجاجة خمر، وطلب منه أن يدفنها في قبر ذهبت معالمه، فاتجه إلى المقبرة قبل طلوع الشمس منفذا التعليمات، ليقلع فعلا عن شرب الخمر ، هؤلاء هم المقربون لوالدي من أصدقائه، لقد تخلينا على كل القيم الجميلة، فأمي تغرف من ملذات الحياة لتعوض سنوات الحرمان، وأخي وجد في أبي قدوة للكسب السريع، فضبطت الشرطة في شقتنا القديمة كمية من المخدرات للترويج زجت به في غياهب السجن، لولا مساعي أبي التي خففت الحكم وكُيفت القضية على أساس الاستهلاك الشخصي.أختي " سعاد" مولت رحلة عشيقها في هجرة سرية نحو الشمال ، وهي تحترف الانتظار ، وعسى أن يكون أخذ المال فقط ولا أخالها على نهجي تسير....

أما "رقية " فلم يسعفها الحظ في التعليم فهي مسخرة لأعمال البيت عن طواعية أو إكراه .

في ظل هذا الوجع القاسم للظهر، وقرابين الألم في تتابعها على مسرح حياتنا يتراءى لي الريف الجميل بنقائه وصفائه، وطيبة أهله الكرماء ، ليصرخ الوجع في أعماقي ، تمنيت لو أن والداي لم يغادرنه،وأزهو في طفولتي مسرعة في ذلك المنحدر المعشوشب بين البيت و"الكتاب" ، أحمل كسرة ساخنة لأبي مع لبن منعش طفت رغوته وزبده على السطح، وأستظل تحت الشجرتين الكبيرتين لانهمك في حوار صامت مع دميتي، لا أسمع عدا رقرقة الماء في الساقية القريبة، وزقزقة الطيور على الأغصان، لا أحد يتجرأ بالاقتراب، ولا دكاكين تغري بما تعرضه فتجعلني الحاجة فريسة لمصدوم في واقعه ، لم يجد سقفا يأوي إليه بمساحة قدمين مربعين يحقق أحلام الزواج فيه، فراح يصب مكبوتاته في جسد ي الغض الذي كان يجهل لغة التحاور بالاحتكاك، فكان يزفر وتهيج أنفاسه وتنتفخ أوداجه، ليتنحى من أمامي فجأة متهالكا ، وهو يتفصد عرقا، فتمتد يده إلى مناديل الورق ليطمس آثار جرمه مع إصرار في عينيه على تواصل مسلسل الإجرام على جسد دمية باردة لم تتأهب فيها بعض براعم الأنوثة للظهور بعد . لكن كان العزاء الجميل أنني تعلمت وأكملت دراستي في المدينة. تحصلت على شهادة " البكالوريا " وكنت أنوي التسجيل في الجامعة ، غير أن فرصة عرضت على أبي استحسنتها ورأيتها صائبة تختصر المسافة للتوظيف، فقد زاره إطار في التعليم برتبة سامية، يشكو من عجز في فحولته كما قالت أمي، فهي تعلم بتفاصيل الحالات،

فالمسكين لا يستطيع نيل مبتغى إلا من بضاعته المحلية في البيت، أما خارجه فتكبت رغبته، وتخر قواه ولا يقوى على نصب عمود خيمته، وبما أن الحالة مستعصية ووصفت على أنه ربط بفعل سحر أسود، فهو مستعد لفك وثاقه بأي ثمن لينعم بالقطاف، فمنصبه يؤهله لأن يري الثمار تأتي إليه نظير خدماته.

دخلت معهد تكوين الأساتذة، و كانت مشاركتي في المسابقة شكلية لذر الرماد في العيون ، فالإطار السامي التزم بما وعد، وكان محظوظا حين استطاعت وصفات أبي وتمائمه بأن تخلصه من الوصاية الداخلية .

انقضى عام من التكوين بين رتابة سبات عاطفي يفضي بظلاله على أعماقي، وبين التزام بمقاييس وبرنامج مكثف ، لتحل السنة الثانية فيصنع أستاذ علم النفس التربوي استثناء في حياتي ، كان "منصف "بنظراته الجريئة ووسامته التي أبهرتني ، يسري في عروقي كمخدر يفقدني الإحساس بالزمان والمكان، ويغرقني في ملامحه بفم مفتوح ونظرات تائهة و ذهن شارد، أبادله نفس الاهتمام ، لكن الغريب في الأمر كيف استطاع أن يتلمس طريقه إلي، ولم يكلفه ذلك عناء كبيرا؟ لقد أدرك أن مؤشر قابليتي سيتفاعل معه بسرعة، ولا أعتقد أن التي خضعت لاختبارات الاستجابة على طريقة " بافلوف" مقابل حفنة من الحلويات ، تستطيع مقاومة عرض بالزواج منه،و بما أن منسوب سذاجتي مرتفع وأتمتع باحتياط كبير، انطلقت من واقعي ليكون مخبرا لنظرية العادة والتعود و تكريس الحافز للحصول ردود أفعال .

حان الوقت لأن استثمر تلك التجارب التي مورست علي وأتت ثمارها بنجاح، بأول هدية مني له وهي ساعة سويسرية أصيلة مطلية بالذهب يفوق ثمنها راتبه الشهري، أخذت أثبتها على معصمه في أول تماس بين يدي ويده،محاولة ضبط أعصابي التي راحت تفضحني بارتجاف علا رؤوس أصابعي، كانت عيناه معلقتين بملامحي وتركزان على شفتي، وهما تشعان بملمع شفاف حافظ على جمالهما الطبيعي، وجعلهما أكثر اشتهاء وإثارة للرغبة، وكنت أسجل النتائج الأولية للتجربة بارتياح على هامش لقاء سريع أراد له أن لا يعمر طويلا، توالت الأيام وأصبحت الهدايا رديفا لكل لقاء، عسى أن تكون فعالة في ترويض هذا الفأر، لاكتشف أن خطأ حدث في تحديد هوية المخُتبَر ، فهو سمكة تتملص وتنزلق وأصبح الإمساك بها ضربا من الخيال، متخرجة بشهادة جامعية في علم النفس، وكفاءات غير مسبوقة في صناعة الكذب وإلباسه ثوب الصدق . سمكة أبريل توسم بقية أيام السنة .

لم يعد لي أي خيار في مطاردة خيط الدخان الذي أراه يحاول الابتعاد والتلاشي ، فاخترت مدرسة في منطقة نائية قريبة من جهة سكنه ، فهو مفتش في التعليم انتدب للتدريس بمعهد التكوين ، رغم إلحاح أبي ومقدرته على أن يسعى لدى معارفه ويجعلني أعمل في مدينتنا ، تحججت أن مدارس الريف لا تعاني من الاكتظاظ، مما يساعد المبتدئين على التحكم في الفوج واكتساب التجربة ، ووعدته أن الأمر سيكون لسنة واحدة، ستسمح لي بأن أتمتع بجمال الريف أيضا .

كانت الدنيا خريفا حين بدأت قطرات المطر تبلل ثيابي، وأنا أحاول تثبيت قدمي على الأرض في كل خطوة أخطوها، مخافة الانزلاق من هذا المنحدر ، فقد التصقت المدرسة بصدر جبل، تحيطها أشجار الزيتون من كل جهة ، ويمتد هذا المسلك الملتوي كحبل سري يربطها بطريق عمومي مسفلت، نحتت فيه السيول أخاديد كثيرة،وشكلت حفرا تجعل الكثير من السائقين يتذمرون ويتجنبون المرور عليه ، عدا حافلة واحدة ، وبعض الخواص بسيارتهم المتهرئة ، التي تستغل للنقل الجماعي دون ترخيص وبمبالغ مجحفة غير قابلة للتفاوض.

كانت ترافقني " شفيقة" وهي زميلة بالمدرسة ، وكنا نتبادل أطراف حديث متقطع بين ثنايا أنفاس لاهثة، كما تمتد أحيانا يد هذه أو تلك لتتمسك بالأخرى ، كلما شعرت بأنها على وشك فقدان توازنها، ولحسن الحظ أدركنا قارعة الطريق لنحتمي من المطر بملجأ تتوقف أمامه المركبات ، أين يقبع كهل يرتاده في مواسم جني الثمار ليعرض أمامه شتى محاصيل البساتين للبيع ، مع قنينات العسل و عبوات زيت الزيتون، أما جدرانه فقد شكلت متنفسا لشعارات سياسية،وأسماء عشيقات ، وصورة نسر كبير مع حروف لاتينية، ترمز إلى فريق كرة القدم المفضل بالجهة، تنفسنا عميقا ونظرنا إلى بعضنا لنستشف مقدار الفرح ونحن نؤوب إلى أهلنا ، فقد كانت المدرسة مكان العمل والمبيت طول الأسبوع، ندرس التلاميذ ونتناوب على أشغال التنظيف والطبخ ، لكننا نشعر بالأمن لتواجد كتيبة من الدرك الوطني على مقربة منا .

تكاثفت الغيوم في هذا المساء بشكل أكثر، وتسارعت وتيرة التساقط، لتظهر حافلة من بعيد تتهادى يمينا وشمالا، في محاولة من سائقها تجنب الحفر التي فغرت أفواهها لإمطار الخريف ، ركبنا على عجل ونحن نلج إلى جوفها الذي أشعرنا بالدفء ، كما استقبلتنا رائحة التبغ، الذي راحت أعمدة دخانه تتصاعد من هنا وهناك ،و تنفثه أفواه، استشعرت لذة استنشاقه بنهم كبير. رمقتنا الأعين من كل جهة ،فهناك من يرفع رأسه في نظرة خاطفة ويرمي بك إلى قرارات التجاهل ، بينما تعلق عيون بعض الرجال بالصاعدات إليها، وهم يركزون نظراتهم كماسح ضوئي ، يختلفون فقط في طريقة المسح العمودي ، بأن تبدأ من الأعلى أو الأسفل والغاية واحدة ، كما يمطون على شفاه تحرر ابتسامات من شرانق الكبت .

انطلقت الحافلة تجاهد في قطع الطريق منذ ساعة، وما إن وصلنا إلى منعرج حتى تفاجأ سائقها بجذع شجرة يسد نصف عرض الطريق جهة اليمين ، فبدا الأمر للوهلة الأول عاديا بحكم انجراف التربة أوقات التساقط، كما لم يستبعد أي احتمالات أخرى، لكن تفكيره لم يسعفه لأن يأخذ فسحة أخرى من الوقت ليجد إجابة مرعبة عن أسئلته ، حيث ظهر رجال مسلحون، في أزياء غير متجانسة وطوقوا الحافلة من كل جهة، إنهم جماعة مسلحة من فلول الإرهاب ،سارعت النعال تدوس أعقاب السجائر المشتعلة، وقبضت الأيادي بقوة على مساند الكراسي، وساد الذهول والصمت كما خيم الخوف والفزع، مما دفع بعضهم لأن يتبول في ثيابه من شدة الهلع ، كانت عيونهم تلمع وتتحرك في كل

الاتجاهات يطوقها الكحل، كما يطلقون لحيهم ، وملامحهم تنم عن عنف وبأس لا تطرقهما نسائم الشفقة واللين.

أشار أحدهم إلى السائق ليفتح الباب الأمامي، فصعد عنصران إلى جوف الحافلة وأخذا يتفحصان وجوهنا، ويدققا ن في ملامحنا، ويطلبان بطاقات الهوية من بعض الركاب، وما إن وصلا منتصفها بين صفوف الكراسي، توقف أحدهما ثم التفت من خلال الزجاج نحو رئيسه وهو يومئ بإشارة من رأسه ، ما لبث أن أمر السائق بأن يفتح الباب الخلفي ليصعد عنصران آخران، وفي لمح البصر انقضوا على أحد الركاب يشلون حركته، ودفعوا به خارج الحافلة بكل عنف ، بينما رأيناه يبدي شجاعة وثباتا،و لم يتناهى إلى مسامعنا الحوار المحتدم بينه وبينهم، ليخلوا سبيله ونحن نتنفس الصعداء حين رأيناه عائدا وهو يصعد درج الحافلة بوجه شاحب أصفر اللون يتبعه عنصران فتح أحدهما فوهة كيس كبير بينما صاح الأخر في وجوهنا بنبرة أطلقت شرارات من التهديد والوعيد :

لا تضيعوا وقتنا بالتفتيش ، نريد كل ما تحملونه من أموال ومجوهرات ، توضع في هذا الكيس .

ليردف :

" ما نأخذه غنيمة لدعم الجهاد ضد دولة الكفر" .

استبشرت الوجوه رغم أنها مازلت تقبع تحت ظلال الإرهاب والخوف ، وسارع الجميع يتخلصون من كل ما شملته لائحة مطالبهم، فتحت حقيبتي اليدوية سلمته الهاتف ورحت أكمش مجوهرات المعدن الرخيص

المطلي بالذهب، لتستقر في قاع الكيس، فرك عينيه وراح يتأكد بأنه لم يبق شيء منها في حقيبتي.

انطلقت الحافلة في صمت جنائزي، وقد تصبب العرق على أجساد الجميع ، بعد أن تملكهم الرعب لنصف ساعة، ابتعدنا عن الحاجز المزيف كيلومترات عديدة، وعلى مقربة من تجمع سكاني، انتفض الشاب الموقوف من مكانه، ودس يده في قفة خضار سيدة كانت تجلس أمامه، ليستعيد الدركي مسدسه الذي أخفاه لحظات قبل تطويق الحافلة، طلب من سائقها التوقف وهرول مسرعا، حيث استطاع طلب النجدة من قوة للجيش بتلك ألحقت بهم خسائر في الأرواح . كما تناقلته الأخبار و أغلب الظن أنه كان يحمل بطاقة هوية مزورة جعلته يفلت من بين أيدي الإرهابيين.

وصلت إلى بيتنا في حالة يرثى لها من انهيار نفسي وفزع شديدين، حتى انتابتني حمى اصطكت لها أسناني وجف حلقي من اللعاب ، وأنا لا أصدق بأنني كنت ضحية كمين لجماعة إرهابية ، وكنت أسمع قصصا كثيرة عن هذه الحواجز المزيفة، وما يترتب عنها من سلب للأموال وهتك للأعراض وسفك للدماء ، لكن الذي لم أتوقعه أن يحل هذا الكمين مشكلتي و أستغني عن المجوهرات المقلدة كذلك، فأمي دقيقة الملاحظة وذلك يخيفني كثيرا، فقبل أسبوع من الحادثة ، أخذت مجوهراتي إلى صائغي وطلبت منه أن يقلدها من المعدن الرخيص ويطليها بالذهب، كانت الفكرة أن يأخذ خطيبي الحقيقية، فما إن أعلمته بالأمر، حتى طلب مني أن أعرج على مكتبه ليستلمها ، فقد وقع في ضائقة مالية من أجل

تسديد قسط مهم من ثمن شقة، لا يتحمل التأخير وإلا فقد امتياز الاستفادة من سكن،بينما احتفظت بالمقلدة لأستغفل بها أمي ، ريثما يعيد شراءها كما وعدني ، فهو ينتظر أن يتفق مع إخوته على بيع عقار ورثوه عن أبيهم، وقبل أن أخطو خطوتي هذه، أوهمت والدتي بأنني سأعير مجوهراتي إلى صديقتي " شفيقة " لتتزين بها في عرس قريبة لها، فانطلت عليها الحيلة وهي التي دوما تذكرني بأن خروجي ولو بعقد أو خواتم من ذهب سيجعلني مستهدفة من اللصوص. ماذا لو علمت أنني وضعت كل المجوهرات بين يدي رجل قد يكون لصا ظريفا، انفرد بأبي في زاوية مقهى شعبي، لوقت لم يكن كافيا ، لأن يفقد الشاي حرارته في الكوبين،قدم نفسه باقتضاب معلنا عن نية مصاهرته، ثم غادر على عجل معتذرا لارتباطات تخص طبيعة عمله .

" ليس من المعقول أن أبقى صامتة هكذا، فصدمة الحاجز المزيف مرعبة وضياع الذهب صدمة موجعة أيضا سأصرخ وأصرخ بدون توقف "

لحظات قصيرة، طوقني الجميع في ذهول، كان يهدؤون من فزعي وظنوا أنني استيقظت من كابوس، سبق أن عشته حقيقة وأخذت أبكي :

ذهبي يا أمي أخذه الإرهابيون ، ذهبي أعادته "شفيقة " فسلبوني إياه في الحاجز المزيف .

ما إن سمعت أمي الخبر، أصابها دوار ترنحت قليلا وسقطت مغشيا عليها، كان ما أملكه من الذهب يثير أعجاب النسوة كما يستنفر فيهم بواعث الغيرة والحسد في الأعراس والمناسبات.

جثم أبي على ركبتيه وهو يمسح على جبينها بيده، بينما هرعت أختي

لتجلب قارورة عطر. وتضع قطرات منه في منخريها بسبابتها وإبهامها، لتعود إلى وعيها بينما ظل والدي يردد:
ابنتك أغلى من المجوهرات، لو فقدناها لا تعوض بذهب الدنيا بأكمله.
حين أجلس مع نفسي ، أكاد أن أغرس أظافري في أمعائي لأجتثها وأخرج معها الوجع الذي ظلت شعلته تتوقد في داخلي.
كيف سولت لي نفسي أن أقدم على هذا الفعل بطيش وسذاجة قد تترفع عنهما طفلة مازالت تلعب بالدمى ؟
كيف أسمح له بأن يأخذ مجوهراتي، وما ادخرته من مال ويقاسمني راتبي الشهري ؟ لقد أخذت قرضا استهلاكيا لصالحه من البنك أسدد أقساطه بالخصم من أجرتي لسنوات، أي حب هذا الذي أعمى بصري، وبصيرتي ؟
تمنيت لو أن الجماعة الإرهابية فصلت رأسي عن جسدي،فالبلهاء مثلي لا يحق لهم العيش في هذه الحياة ، فهم خطر على أنفسهم وعالة على وذويهم، اكتشفت أنه متزوج وأب لطفلتين ، بعد فوات الأوان. فكانت أول كذبة تكتشف صدفة في مسلسل حلقات الكذب ، تصرخ في وجهي عارية من الحقيقة وتبصق على سذاجتي وحمقي ، ليس لي إلا مواصلة السباحة ضد هذا التيار الذي يجرفني بعنف، ولا أجد أي شيء أتشبث به ، فقد تماديت في أخذ زمام المبادرة بحمق، واتخذت قراراتي دون استشارة أحد ، يا لوجعي حاجز مزيف ... ذهب مغشوش... وخطيب جمع صفات تستعجل تجرعي مخيبات وانكسارات أخرى.
كيف لي أن أستمر في حبه ، وأنتظر منه زواجا لا أعرف أي جحيم أرمي بنفسي فيه ؟

لم أعرف كيف أقنعني بأن أتقبل فكرة زواجه ، فهي لا تحتاج لأن تطرح في ظل طلاق قائم بينها حسب نظره، وأنه يعاني اكتئابا وشكوكا لأن زوجته تخونه مع عشيقها السابق، وكيف تملصت دمعتان من عينين راح يعصرهما، فأجهشت ببكاء لحاله وارتميت في حضنه، كبديل وعنوان للوفاء والاحتواء ، لم أشعر لحظتها بأي دفء ينبعث أو إحساس يتدفق تجاهي، بقدر ما كنت أرصد الفرح يتراقص في عينيه،كلما فتحت حقيبة اليد وسلمته مبلغا معتبرا.

أصبح إلحاحي على تنفيذ وعده بالزواج ظلا يطارده وهاجسا يؤرقه، فهو يعرف جيدا أنني إذا سحبت الغطاء عنه، واعترفت لأهلي بكل الوقائع ، سيكون حسابه عسيرا وينتقم منه أبي بجبروت معارفه شر انتقام، رضخ لعقد قران عند موثق عدل، بلا مهر، حتى أتعاب مكتب التوثيق دفعتها من جيبي والأرض لا تسعني من الفرحة، فقد كنت أحبه بجنون رغم اقترابه من الأربعين بسنتين، وتجاوزت العشرين بمثلها ، لكن فارق السن لم يكن له اعتبار عندي، فتاريخي حافل بالعابرين فيه، المثقلين بسنوات تفوق عمري .رضخت لشروطه بأن يقتصر حفل الزواج ومراسيمه ببيتنا فقط، وأن أقنع أبي أنه يقطن بقرية جبلية صعبة المسالك، ولا حاجة لنا بموكب من السيارات للعروس ، إذ يكتفي بالحجز في فندق يليق بالمناسبة تقبل أبي الفكرة على مضض ، بينما باشرت أمي مع أختي " رقية " تحضيراتهما للحدث ، الذي سيكون أول حفل يقام في بيتنا، ونحن ننتظر خروج أخي " صالح " من السجن فقد عزم أبي على تزويجه حتى يقلع عن طيشه ويبتعد عن رفقاء السوء .

كان محور الاتفاق بيني وبين " منصف " أن يكون بيت الزوجية شقتنا القديمة، نلجأ إليها في العطل ونهايات الأسابيع، بحكم عملنا بعيدا ، ريثما نستلم الشقة التي ساهمت في تسديد أغلب أقساطها من ذهبي و قرض أخذته على عاتقي، وما كنت أضعه في جيبه باستمرار .

عشية اليوم الموعود ، تلألأت الأنوار في حديقة بيتنا بألوانها الزاهية، وفاحت رائحة الأطباق الشهية تزكم الأنوف ، وانتشر الأطفال في الفناء زرافات ووحدانا، بشغبهم وفرحهم، وصدحت فيه الأهازيج والأغاني من حناجر يتردد صداها في أنحاء البيت ، وكنت أتسلق الوقت بدقائقه الثقيلة ، لأراه يلج باب بيتنا بطلعته البهية ، وأناقته الباذخة ، في بذلة سوداء اخترتها بنفسي ودفعت ثمنها أيضا ، وربطة عنق فضلها أن تكون حمراء، أكرمنا الضيوف بما لذ وطاب ، وعانق العقرب الكبير صغيره في الساعة الحائطية، أصدرت رنينا و بدأ بندولها يتأرجح يمينا ويسارا ، كطعنات سكين تتابع على قلبي الصغير، وأرى فستان زفافي الأبيض تكتسحه دمائي، ساعة "خالد" التي أهداها لأبي ظلت ترافقنا من بيت إلى بيت ، لتؤرخ لحظة حاسمة بأن للخيبة زمنا آخر. آه و ألف آه من وجع يخلع ثوب الكلمات، فأنها لتضيق به فيرميها أشلاء ليخلص لحقيقته عارية، يواصل العقرب الكبير مسيرته ليتفقد صغيره باكتمال دورة يحتفي الرنين بلحظة اللقاء ، لكن " منصف" يغيب عن لحظة الموعد، ساعة بعدها ، ثم ساعات أخرى .

باتت كل العيون معلقة ترمقني في ذهول، وكل سهام اللوم مصوبة نحوي بإصرار كبير، لتزيدني طعنات أخرى دلف أبي الغرفة بعد أن هربت أليها

أعتصم من وابل أسئلة لم أجد لها جوابا ، زفر من أعماقه ونظر إلي نظرة قاتلة وهو يقول : "فضحت نفسك يا ابنة الكلب، وانطلى العار علينا جميعا ".

أمرني بنزع فستان الخيبة والقرف ، وأن أتنكر في جلباب لترافقني أختي "رقية" إلى شقتنا القديمة ، ونعلن بأن مشيئة الله كانت أقوى، وقع حادث مرور ذهب ضحيته زوج أخت العريس فتوفي لتوه ، مما تعذر عليه الوصول، لكنه تحامل على نفسه وفجيعته وجاء فجرا ليغادرا معا .

أصبحت منبوذة في بيتنا بعد أن كنت المدللة، وأصبح الاحتكاك بي محل تجنب من الجميع، وكأنهم يخشون انتقال عدوى فيروس قاتل أحمله ، كما صار الحديث معي متكلفا، ومكلفا لهم أيضا لا يتعدى حدود الحاجة.

اتصلت برقم هاتفه الثابت في المكتب ، كان يرن بدون انقطاع ولا يرد عليه مجيب ، وفي اليوم الموالي اتصل بي صوت حاول أن يكون محترفا، أوكلت له مهمة امتصاص الصدمة بأجر محفز، ليطمئنني بأن " منصف" في حالة نفسية متدهورة لكنه سيتجاوزها عن قريب، فقد ظل لأربعة أيام في الحجز التحفظي بمقر الدرك ، على ذمة تسديد نفقة ابنتيه لطليقته، التي رفعت عليه قضية إهمال عائلي ، ثم أفهمني بأنه دفع المبلغ، واضطر للاستدانة كي يطلق سراحه ،كنت أستمع دون أن أعلق أو أبدي رأيا ، فالمسافة التقديرية عندي بين كذبه وصدقه هي رقم سالب. وأن هذا المأجور لم يستطع تقمص الدور بشكل مقنع .شجعني أسلوبه في توظيف المكلفين بالمهمات ، فقررت أن أعرف الحقيقة بأي ثمن،فما بت أصدق أنه مطلق، وأجزم في قرارات نفسي بأنه يعيش حياة عادية ، وما أنا

إلا نزوة عابرة، أو ورطة غرق في وحلها ويصارع الوقت للتخلص منها، دفعت بسخاء كبير لسيدة طاعنة في السن، ووفرت لها وسيلة نقل مع سائق ، كما زودتها بإحداثيات المكان والتوقيت المناسبين، طرقت بيته لتتوسل إليه بأن يساعدها في إيجاد منصب عمل لابنتها، كان غائبا ساعتها ،لكن تقريرها ألم بكل شاردة وواردة ، فالزوجة ابنة خاله ويعيشان في ظروف عادية مع أمه، عدا أن البيت قديم متصدع الجدران يكاد أن يقع على رؤوسهم، وتعود ملكيته للورثة .

كانت المهمة التي أوكلت للسيدة كافية، لأن تجمع شتات كذبه في سلة واحدة، بعد ما كان يوزعه على مدار الأيام وينكه مذاق لقاءاتنا به، لأرتوي من خمر الوهم في انتشاء حتى الثمالة، غير أن ذلك الحب الذي أكنه له، يدفعني إلى تقبل فكرة التسليم بكل المتناقضات التي تزاحمت في شخصيته، و يقنعني بأن التعايش مع الشيطان والملاك في صورة واحدة ممكن .إذا تحليت بالصبر ومسايرته بليونة حتى أتمكن من التحكم في زمام الأمور، ولا يهم أن أشارك امرأة أخرى فيه، ورغم هذا الانحراف المهول قررت أن أعيد قطار إصراري إلى سكته، وأعاشره كزوجة.

بخط اليد .

ملاحظة : هذا ما توفر من النص، أوافيك بما تبقى حين يجهز مرقونا، أنا مبتدئة أستاذ .

لا تجاملني رجاء..

ليضع " طارق" صفحات المخطوط جانبا .

الفصل الثالث

طرقت " حنان" باب مكتبه هذه المرة ولم تكن لوحدها، بل كانت ترافقها فتاة سمراء رشيقة القوام، انسدل على كتفيها شعر أسود، وتمردت عن تسريحتها خصلات تغطي الناصية، لتظلل عينين واسعتين، فيهما من الجمال و دواعي الألفة ، كما يتبدى فيهما انكسار يحاول لأن ينال من بريقهما لصالح فتور باهت ، كما يرتخي جفناها لتتجنب أي نظرة تستفز أسئلة تقرأها في العيون بحدس لا يخطئ، وما إن استراحتا على الأريكة المقابلة لمكتبه بادرت بالحديث لتوفر عليه عناء التخمين قائلة:

يشرفني أستاذ أن تتعرف عليك ابنتي "دعاء " . عمرها أربعة عشر سنة .

يشرفني ، سعيد برؤيتكما في مكتبي .

ابنتي موهوبة أيضا ولها محاولات في كتابة قصص الأطفال.

تلتفت إليها مضيفة :

الأستاذ "طارق" مدير النشر ، وصديق السيد" مراد" مالك المطبعة الذي اتصلنا به هاتفيا .

تبدي ابتسامة خاطفة في وجهه، تضيق عيناها ويرتفع حاجباها، تومئ برأسها على سبيل التحية، ثم تسترخي لتعود إلى حالة سكون بشفتين مطبقتين، وهي تعتصم بملاذ الصمت .

يردف طارق: نتمنى أن تكون على خطى أمها ، فنبض حرفك جميل وتظهرين نضجا في الكتابة مع خيال خصب .

حنان: أحضرت ما تبقى من النص ، لكنني قررت عدم نشره ، وإرجاء الأمر إلى المستقبل المتوسط .

نظرت إلى ابنتها وهي تربت على كتفها قائلة:

دعاء عزيزتي ترى بأن الوقت لم يحن بعد، فالتفكير في النشر سابق لأوانه، وافقتها في الطرح و أنا ممتنة كل الامتنان على اهتمامك، وصرف كثير من وقتك الثمين في قراءة ما كتبت .

لتضيف : أكتب بتلقائية وأسترسل في صب حروفي على الورق ، لا أملك إلا نزرا قليلا، و إلماما شحيحا بفنيات الكتابة، كل رصيدي ما تعلمته من أيام الدراسة بشكل مبسط ، فأنا توجهت للتكوين لأكون أستاذة ، ولم ألتحق بالجامعة .

فرك "طارق" عينه ورفع من درجة انتباهه في حدة واضحة، وراح يكتم سؤالا كاد أن يتجاوز حلقه وشفتيه، عرف أن الموضوع يتعلق بسيرتها ، كما أدرك أن التردد في النشر له ما يبرره ، مر على كلامها يتجاهله مخافة أن تتوجس و ينتابها شك، بأنه لامس أطراف الحقيقة فتحرمه من قراءة ما تبقى والذي ظل ينتظره من أسبوع، فتحت محفظتها وهي تسلم بقية النص في قميص من الورق الغليظ.

امتدت يده بلهفة وحماس ليضع هذا الجزء أسفل سابقه وتنتبه "حنان" أن سبب المجيء حقق غرضه، همت بالوقوف ملتفتة إلى "دعاء" والتي ظلت صامتة ترهف السمع لكل كلمة ، نهض من مكانه ليشيعها في بهو المؤسسة، حيث غادرت ناظريه مع ابنتها مستأذنة بابتسامة تعلوها ظلال الحشمة.

.....

ظلت الانتكاسات تلاحقنا تباعا في هذا البيت ، حتى قال بعضهم أن سببها هذه الشرور التي تلاحقنا وتنعكس على حياتنا، مردها آثار الآثام وهموم الوافدين، التي نشرت تفاصيلها في عقر دارنا ، وهذا ما كان يردده جدي أيضا، الذي فارق الحياة بداية هذا العام، و ترك في حلق أمي غصة أخرى فقد تقاسم إخوتها التركة، واستثنيت من الميراث بدعوى أنها ليست بحاجة إلى أملاك في الريف، وما عليها أن تطرق أبواب المحاكم إن أرادات نصيبها، فكل ما آل إليهم عقارات مشاعة من عشرات السنين والفصل فيها قضائيا يحتاج لمثلها، فقد سُلب حقها في أن يكون لها موطأ قدم، وحرمت من الريف الذي أحبته ، حين أقسمت أن لا شيء يدفعها لزيارته بعد اليوم ، و طعنة حرمانها معنويا تراها أكبر بكثير مما ستستفيد منه على أرض الواقع ، خيبة أخرى تضاف إلى رصيد أختي" سعاد" ليطل عليها "نذير" في الفضاء الأزرق وهو ينشر صورته مع امرأة شقراء باذخة الحسن، تكشف عن ابتسامة عريضة كمؤشر لسقف فرح يعانق عنان السماء ، بينما كان يحتضن صورة رضيع يفتح فاه ضاحكا ، وتمتد أصابع يمناه تحاول لمس ذقنه،انهارت رغم صلابتها لتسقط كصخرة من علو لترتطم بواقع أكثر صلابة وقسوة،فالبحر أمامها و"نذير" وراءه ، هذا الذي مولت رحلة مجازفته لأجل حلميهما، ليس لها إلا أن توغل صدر أخي صالحا الذي خرج من السجن من زمن قريب، كاشفته بأمرها دون تردد، ووضعته أمام صورة صديقه المقرب، فلم تكن تقتسم معي صفة تدثير المواجع ولمها في الصدر كتلة ملتهبة، لم ينتظر كثيرا لينتقم بحرق سيارة أبيه المتهرئة، صب عليها البنزين ذات

ليلة لتصنع مشهدا في الحي، ولم تفلح دلاء الماء والسيقان العارية المسرعة صوب اللهب في إخماد النار ، ليصل رجال المطافئ وقد احترق كل ما في جوفها ، أشرقت شمس ذلك اليوم على مشهد هيكل من المعدن تفحم في ليلة صاخبة، ورماد في صدر أختي تكنسه بصمت يظلله يأس قاتل ، سجلت الحادثة ضد مجهول لكن الذي اعتقده أن "نذير" لم يستبعد تورط أخي وراح يكتم الأمر لأنه يدرك أن غضبه لا يستسلم لأي ردع.

استفاقت نزوة " منصف" فجأة فقد كانت تتوارى تحت وطأة حاجته للمال، وكل تركيزه كان على أقصى ما يسلبه مني عن طوع، ليحول منحى استثماره في اتجاه آخر ولعل هذا الجسد الذي بت أعرضه في سوق مذلتي بلا تردد، انتبه إليه أخيرا، ووجد أن استغلاله لا يضر في شيء فردود أفعالي بات يحفظها عن ظهر قلب، فبعد كل صدمة أجدني أقترب أكثر ، وأنا أضرب قواعد الفيزياء عرض الحائط في مسألة الأفعال وردودها، وبما أننا في حكم المتزوجين فله أن يأتي حرثه متى أراد .

كان اليوم ربيعا بشمسه الدافئة ، وكانت المدرسة قلبا نابضا بصخب الأطفال في هذه القرية، يردد الجبل صدى أصواتهم وضجيجهم في أوقات الراحة بفنائها، وبانتهاء دوام الدراسة منتصف النهار استثناء يوم الخميس، يدق الجرس لتلفظهم البوابة الكبيرة نحو منازلهم عبر مسالك تتخلل أشجار الزيتون وتكشف عن عراء أرض، بينما يطغى الاخضرار على كل بقعة من هذه المرتفعات والفجاج ، وصل " منصف" بوابة المدرسة بأنفاس لاهثة، بعد أن تجشم عناء الصعود إلى صدر الجبل ، فكانت التضحية الوحيدة التي أدرجتها في رصيد حسناته، فقد تعرف عليه

زملائي في العمل ووجدت ذلك رد اعتبار ولو كان متأخرا، وبت انتشي في غبطة وسرور ، بعدما استطعت أن أقنع والداي على تجاوز ما حدث، وأن الهروب إلى الأمام لا يجدي نفعا ولا مناص أن أسلم بنصيبي، الذي لا يعد سوى حشفة مع سوء كيل، مقارنة بأدنى حظ نالته صديقة من اللواتي أعرفهن . كانت وجهتنا هذا المساء إلى مدينة ساحلية قريبة، أدركنا المساء في شوارعها حيث لقمنا أكلات خفيفة واقفين نزولا عند رغبته، وكان التفسير الذي لا أجد له البديل أن " منصف" في عجلة من أمره لطقوس طالما انتظرتها، وليلة لا يشق بياضها ظلام مهما استبد سواده، ورحت أفاضل بين ثياب احتوتها حقيبتي اقتنيتها كما انتقيتها لتوسم هذا اليوم ، وكنت طول الطريق أرتب في رأسي أولوية ارتدائها هذا أو ذاك في عرض خرافي ثم أهدم البناء، لأستبعد هذا الثوب من رتبته ، وأجعل ذاك جديرا ، وهو يضفي جمالا على جسد تضوع برائحة عطور، تحفز الاشتهاء وتزيد من ضراوة الإغراء .

كانت سيارة الأجرة التي تقلنا نحو الفندق ، تتجنب الأحياء الراقية وأماكن المنتجعات والفنادق الفخمة، حتى خيل إلي أن السائق أدرك أننا غريبان عن المدينة، ومن عادة هؤلاء الاستثمار في جهل الغرباء واستغفالهم في إطالة عمر الرحلة لمسافة أطول لتكون الأجرة مرتفعة، تسللت في أزقة ضيقة وحواس السائق ترفع درجة اليقظة إلى أقصى حددوها فالازدحام كبير ، والاحتكاك يكون وشيكا بكل متحرك من سيارات وعربات للباعة المتجولين ومشاة ،ليتوقف السائق فجأة معلنا الوصول إلى الوجهة المطلوبة ، كنت أجلس وراء السائق مباشرة، بعدما

زحزحت بجسدي جهة اليسار ، فقد كانت نظراته تتفقدني كل لحظة ، ليحلو لها أن تتعلق بالمرآة العاكسة، وتقهقه في أعماقي بضحكات ساخرة على معشوقة مشتهاة بحظ عاثر من الزفت ،التفت "منصف" إلي بتسعين درجة حيث فهمت أننا وصلنا وعلي بالنزول ، وما إن خرجت من جوف السيارة الدافئ ضمني الحي الشعبي بكل تناقضاته ، ورفعت عيني أنظر إلى واجهة هذا الفندق البائس ، دخلت وراءه أتأبط حقيبة صغيرة ، بينما أجر على الأرض ذات العجلتين. كان فندقا بالاسم في غاية البؤس غير مصنف للسياحة، فهو مجرد مرقد يلجأ إليه العمال ، وأولئك الأفارقة الذين قطعوا الصحاري يتربصون بأي فرصة تنقلهم إلى الضفة الأخرى ، يمتهنون العمل في الو رشات أو باللجوء إلى النصب والاحتيال والشعوذة، شعرت بالقرف والرغبة في التقيؤ، وتبلد تفكيري كما أصابني الذهول وأنا ألجم لساني عن التعليق أو الاستفسار.

دلفت باب غرفة توسطها سرير لفردين، مع مغسل ثبت إلى الجدار تعلوه مرآة أكلت الرطوبة وجهها، فانتشرت عليها بقع رمادية متفرقة ، وتعلقت على مشجب منشفة بأدرانها ، لم يكن يمنحني فرصة التحديق في عينيه، بنظراته الجانبية وكأنه يتجنب التقاءهما، استأذن للخروج لبعض الوقت مؤكدا على أن أغلق الباب جيدا لم يذهب خيالي بعيدا بأن يقصد متجرا للهدايا، أو يجلب ما لذا وطاب من فواكه و مكسرات، وليس لي أن أكون فطنة لدرجة كبيرة ، فقد نسي أمرا مهما ، حبة زرقاء من صيدلية توفر عليه الجهد والوقت، هذه الساحرة التي

تغلبت على الخجل ومركبات النقص بأشكالها وردعت أفعال الشعوذة إلى حد بعيد .

كنت أسمع وقع أحذية في الرواق الضيق في هذا المرقد،كان وقت العمال العائدين من الو رشات والمصانع ، من أولئك الذين تقطعت بهم حبال الوصل مع أهاليهم ، فراحوا ينشدون لقمة العيش بعيدا عن ديارهم ، كما يتناهى إلى مسامعي احتكاك أواني الطبخ يبعضها فتصدر أصوات مختلفة ، نظرت إلى حقيبتي في زاوية من الغرفة وقد قررت أن لا أفتحها، فحقائبي خلقت لأن تكون مختومة بالوجع والألم وليس بمقدورها أن تفتح للفرح، لم يعد هناك إيلام للجراح وقتل ميت ليس بجرم ، فقررت أن يأخذ ما تبقى في رصيدي والذي أخطأه العابرون في حياتي حرصا أم خوفا، يمكن أن يأخذه فلا شيء يستحق أن أحتفظ به، فقدت كرامتي أمامه بطعم المذلة وهو يطردني كجرب خاف أن يعلق بجسده، لكنني سأمضي قدما حتى أفوت فرصة أن تلوكني الألسنة ، وتهزأ كونه هرب ونفذ بجلده ليتركني معلقة بين الزواج وعدمه.

عاد بعد ساعة من الغياب ، وكأنه قطع مسافات بحث مضن عن حبة زرقاء لا يطال ساحتها إخفاق، كنت استسلم للذبح كطريدة أنهكها الجري وتوزعت على جسدها خريطة ثغور تنزف دما ، أحدثتها شراسة أنياب وأظافر بطعناتها ، وهنت قوتها في هذا المكان البائس، وانزوت لا تلوي على أي حركة بجسد منهك، تتحرك فيها عينان تنظران في فراغ ماعدا ذلك كان كتلة جليد يفور ثغرها .

تمدد إلى جانبي على حافة السرير ، حيث كنت أجلس القرفصاء وأضم ساقي إلى بعضهما تطوقهما ذراعاي، وكأن اللاشعور يعلن حربا على الشعور، ولا يريد لحظة يأس تقود إلى الاستسلام ، أشعل سيجارة ينفث دخان حشوتها الملتهبة من عمق صدره إلى فضاء غرفة كئيبة ليزيدها كآبة ورائحة مشينة ، بينما تقبع قارورات العطر الفرنسي بين طيات أثوابي على مقربة قدمين بحقيبتي، سحق عقب السيجارة بعنف على أرضية الغرفة والتفت قائلا :

ماذا تنتظرين ؟ أليس هذا ما كنت تبحثين عنه ؟

أجهشت ببكاء مرير ، فما كان عليه إلا أن صفعني بقوة قائلا:

هل تريدين أن يجتمع علينا رواد الفندق ؟

ابتلعت صرختي وكتمت أنفاسها كما تعودت أن أتجرع مواجعي في صمت، ورحت أتخلص من ملابسي بلا وعي، جردني من كل قطعة، وجعلني أربض ككلب على ركبتي ومرفقي ، أشعر بتمزق و تطفح عيناي بدمعتين شعرت بحرارتهما على وجنتي يتنحى جانبا وهو يقول :

هذا ما أردت ؟ لم يعد لي دين أوفيه لك .

تنحى جانبا وهو يفرغ نصف قارورة ماء في جوفه، ورحت ألملم جسدي العاري في لحاف متسخ، كنت أرتجف وأسناني تصطك يبعضها وتملكتني حمى مفاجئة ، لم يكلف نفسه عناء ضمي إلى صدره في ذلك الموقف، أدركت لحظتها أنه انتقام على طريقته، ورد صريح على تذمره من إلحاح وإصرار رحت أمسكهما وصولا إلى هذه المحطة، لم يطبق لي جفن على جفن تلك الليلة،وقطعت طريق العودة باكية أنتحب أقف على نهايات

الخيبة التي دفعت لأجلها الكثير ، هل هذه هي قطاف ذلك الحلم ؟ وهذا الذي كنت أنتظره من ذلك الوسيم الذي وهبت له كل ما أراد بلا حساب أو تردد ؟

.....

تكشف وجه الشيطان فيه وتوارت ملامح الملاك التي خدعتني، أشاح عن قسوته وفظاظته ، والأدهى أن أتبين مركبات نقص وعقد نفسية لا سبيل لحصرها ، لقد قاومت كل المفاجآت والتحديات، حتى يجمعنا سقف واحد في شقتنا القديمة أو في سكن المدرسة ، لكن حين أتساءل عن جدوى هذه المعاشرة، أجدها أشبه بساعات لإعادة اجترار الألم من مخزون لا تعرف رصيده إلا ليالي الأرق والدموع الحارقة .

اكتشفت أنه يتقوقع في شخصية جمعت كل الصفات في كفة واحدة من كذب ونصب وخداع ، كما يعاني اضطرابا نفسيا، يترجمه في إرهاب نفسي على غيره ، ولا يتورع في استعمال العنف بالضرب متفاديا الوجه ، وما دونه مستباح فهو لا يستهدفه حتى لا يكون عنوان شراسته ، ولا يقعدني في البيت واختفي عن الأنظار فيقتص من راتبي وهو في حاجة إلى نصيب منه .

لا أحد يصدقني إن فضفضت ، فعادة المرأة الثرثارة تصبح محل شك في كلامها، ومصداقيته تتناقص كلما طال لسانها، لذا فأنا أكتم أنين جراحي عن الآخرين ، وأصب الوجع حبرا على الورق ، أجزم أنني ما ذقت طعم

رعشة أتيحت للنسوة، أسمع حديثهن عنها في همس تعلو شفاههن ابتسامات ويحلو لهن الخوض في موضوع يقبع في ظلال المسكوت عنه، كان يفضل أن يأتيني كما تؤتى البهائم بما يملي عليه شذوذه ويرغمني أن أجثو مستهدفا فعلا مخلا أرفضه، و هو يعذبني نفسيا أكثر مما أطيق فلا شيء أحسه أو أتلذذه وأستلطفه، و لا يستحي بمطالبتي أن أبدي إعجابا بذلك ،لا حاجة له بمستهدف وجده شبيها بما تملك زوجته والفارق بيني وبينها أنها ولدت طفلتين ، لكنه لم يرد فضحي هكذا راح يهذي بكلامه، أتذكر لحظتها صرخت في وجهه و أنا أنشب أظافري في رقبته كقطة أصابها الجنون ، وكان رده عنيفا لم تسلم بقعة من جسدي من ضربه المبرح، ليكشف الصباح عن كدمات زرقاء انتشرت كالطحلب الرمادي السام .

أيقنت أنه يتناول مهدئات ليكبح جموح اضطراباته النفسية ، فكلما بتنا معا لا يقاوم السهر ، ويستسلم للنوم كالأطفال ليصنع الاستثناء ذات ليلة، فتح موضوعا لامس أطراف الفلسفة والدين والجنس، مفاده أن المرأة تسمو بجمالها وتنزل إلى الحضيض بأفعالها الرخيصة وارتمائها في الأحضان واستسلامها للنزوة ليضيف :

أول امرأة كرهتها كانت أمي.

لأرد عليه: حرام عليك إنها أمك، ما هذا الذي تقوله هل أنت في وعيك؟

بصق في وجهي وهو يرفع صوته إلى سقف أعلى :

تدافعين عنها ؟ طبعا الطيور على أشكالها تقع ، والعهر ميثاق شراكة بين النسوة جميعا .

طأطأت رأسي ودخلت في هدنة مع الصمت ، لعله يسترسل في الكلام ليشبع فضولا تملكني ، وحيرة وذهولا شديدين أفقداني القدرة على استيعاب ما سمعته ، يلجم كلامه للحظات، يشعل سيجار ة كعادته كلما شعر بحاجة لأن ينفث ما بصدره مع دخانها المتصاعد ويستطرد في الكلام قائلا :

كان أبي " إبراهيم"رجلا طيبا بالسليقة ، صفة يجمع عليها كل من عرفه عن قرب ، يقضي نهاره في الوديان ، يجمع رمالها في أكوام هنا وهنالك، لتملأ ظهور الشاحنات من خلال مسحاته ، شكل جهده المتواصل عضلات عضديه مغزلين بارزين يظهر فيهما عنفوان الشباب ، لكن مرض الصرع جعل حياته مفتوحة على المفاجآت وانزلاق المجهول مع كل نوبة تنتابه ، وكلما سقط ترتسم على جسده كدمات أو ينزف دما من جراء الجروح، ومن أثار مرضه بقاؤه بلا وعي في حالة تخبط أو سير إلى وجهة غير معلومة، وحين يسترد الوعي يقف على وضع يحتم عليه البقاء في البيت حتى يتعافى، وكثيرا ما كان عمي الذي يجاورنا في السكن يسعفه ويقف إلى جانبه ساعات متأخرة من الليل، وكان أصحاب شاحنات الرمل ممن يعرفون مرضه، يحرصون أن يركب إلى جانبهم في قمرة القيادة تفاديا لأي طارئ يحدث له، غير أن حضور الساعة جعل أحدهم لم ينتبه حيث استلقى فوق الرمل على متن شاحنة أثناء سير ها ، داهمته نوبة صرع فسقط على قارعة الطريق ، أمام عجلات سيارة لم يفلح السائق في كبحها ، لتمر على جسده ويلفظ أنفاسه لتوه .

أجهشت ببكاء وأنا أقبض على رأسي بيدي، أطرق قليلا ثم سألني :

لماذا البكاء ؟

قلت : موت مفجع ومؤسف جدا.

ليردف : لا تستعجلي وتستبقى الأحداث ، يستحق موتة واحدة فكانت له ، وإن كانت في منتهى البشاعة ، فالصرع منح له امتياز اللاوعي .

فركت عينني أكثر ، وازدادت دهشتي ليضيف :

لكنه تركني أموت كل لحظة و بوعي كامل .

كنت في الثامنة من عمري، أتدرين ؟ لم تمض سنة على وفاة أبي حتى تزوجت أمي من عمي ، الذي عمل في فرنسا و ترك هناك ولدا مع زوجة من جنسية اسبانية ، لأسباب نجهلها وهناك من قال أنه فقأ عين رجل في ملهى ليلي، فتملص من جرمه هاربا إلى بلده .

ما زال صدى قهقهاته يتردد في أذني وهو مع أمي في الغرفة المجاورة، كان يعنفني مع أخوي، ولا تحرك والدتي ساكنا بل تقول لو كان أبوكم حيا سيفعل ما فعل لمصلحتكم، لم أندم أنني حاولت قتله خلسة فوضعت له السم المخصص لإبادة الفئران في الكسكس ، لكنه كان قطا بسبعة أرواح ونجا بأعجوبة،ولم يسمع هذا غيرك اليوم، كانت أمي تحاول إخفاء زجاجات الخمر التي يحملها معه إلى البيت ، ليتجرعها في ليله الطويل كما يجبرها على التدخين معه، لم أتحمل رؤيته فذهبت للعيش عند خالي إلى اليوم الذي وصلني خبر جعلني أرقص فرحا، فقد حوله قطار إلى لحم مفروم تحت عجلاته ، حين كان يحاول عبور سكته مخمورا ، عدت إلى والدتي التي اتعظت من درس الأقدار لكنني بقيت أمقتها ولا أستبعد أنها كانت عشيقة عمي في حياة أبي.

يشعل سيجارة ينفث نفسا في فضاء الغرفة و رقبته تشرئب إلى سقفها.
هل تريدين أن أثق في نساء العالم بعدما فقدت الثقة في أمي ؟
أنكس رأسي دون أن أنبس بكلمة ليكمل :
وتلك التي تركتها في البيت في رعاية آثمة سابقا أتظنين أنها معصومة ، لقد كانت تهذي باسم " خليل " في نومها دائما .
لا فائدة يا " حنان" كلكن بهذا الوصف .
أبديت هدوءا وأنا أحاول أن الانكفاء تحت ظلال الصمت لمدة أطول، وبت أتخيل أن معاندته بالتعليق ستفضي إلى ما لا تحمد عقباه ليرفع رأسه قائلا:
هل تعتقدين أنني أعاني من مرض نفسي ؟
أومأت برأسي نافية ما ذهب إليه وتقدمت أمامه بحذر لأضع بين يديه فنجان قهوة .
هل تعرفين يا "حنان" ما معنى أن تحس بخنجر الخيانة يتوغل في خاصرتك كل لحظة ، وحدها لغتك التي تتغلغل إلى مسام الإحساس بلا استئذان ، قد تجعلني ألامس حقيقتها في حروفك ، أريد أن تكتبي وأسمع صوتك يشنف آذاني .
حملقت في وجهه مليا و أنا أحرص عن فهم ما يدور بخلده وما يبتغيه ليفصح أخيرا قائلا :
احضري ورقة وقلما وتخيلي أنك تلك السافلة ، واجهتها بالحقيقة، فكتبت لي اعترافا بجرمها وهي تتوسل أن أصفح عنها،أريد أن أتحرر ولو بسماع حقيقة مفبركة على لسانك.

كنت أشفق على حاله وأنا أسمعه يتحدث عن معاناة، كبرت معه من أيام الطفولة ونحتت في نفسه أخاديد عميقة، لم أهتم للأمر واعتبرت ما أخطه على هذه الورقة، لا يعدو سوى مسايرة لرغبة مهووس بالوهم، أو ضحية حقيقية لم تجد من يصدقها أو يسمعها، وفي كل الحالات ما عدت أحس بالسياط التي تنهش جسدي، وأن يهوي سوط الخيانة أيضا يجلدني في حروفي، وأن أتقمص دور غيري لأرضي ما تمليه عليه فجوات وثغور تهز كيانه برياح الشك والريبة، كتبت ذلك في سطور وقرأتها على مسامعه، فرأيته يصغي باهتمام بالغ ثم ناداني لاقترب منه واضعا الورقة جانبا ، ودس رأسه في صدري باكيا فشعرت لحظتها أنني حققت خطوة أولى في طريق استمالته وترويضه، هكذا كنت أعتقد وقتها دون يقين قاطع أو حدس صادق، كل زادي هو سذاجة أدمن عليها بإصرار رغم ما جنته علي من عواقب وخيمة وآثار مدمرة .

****

الفصل الرابع

كانت علاقتنا تبدو وكأننا عاشقان أكثر من زوجين،لكنه عشق بلا طعم فاقد لكل حافز، وكل اللحظات المسروقة، هنا وهناك لا تعدو مجرد أدوار أقوم بها على خشبة مسرح أتقمص فيها دور زوجة دون استيعاب للدور أو التفاعل معه ، وظل هاجسي يتمثل في حرصي الشديد أن لا أجرم في حق حياة ترمي بها أحشائي إلى هذا العالم الذي لم أستطع التكيف معه وأذاقني صنوفا من الوجع ، أقنعت نفسي أن موضوع الإنجاب يجب استبعاده قدر الإمكان ، حتى يتبين لي الخط الأبيض من الأسود في ظل متاعبي الكثيرة.

أتى إلى هذه المدرسة النائية ذات مساء وقد نفذ ما عندي من موانع الحمل، حاولت التملص متمارضة وأقنعته بأن آلاما تمزق أحشائي، لكن ما كنت أسوقه لم يجد نفعا أمام رغبة في قضاء ما يريد، ورغم توجسي رجحت الكفة لتفاؤل يستبعد حدوث ما أخشاه.

توالت الأيام تعد قرابة ثلاثة أشهر ، لتبدأ أعراض حمل معلنة عن حياة جديدة تتشكل في ظلمات أحشائي، سأدفع بها إلى ظلمات حياتي ظلما، لأضاعف رصيد متاعبي ومعاناتي ، أسرعت إلى طبيبة نسائية للوقوف على حقيقة الأمر ، فلم يكن يقيني من الحمل كاذبا وبات حقيقة لا مناص منها ، ساورتني أفكار كثيرة تحت ضغط نفسي هائل، جعلتني أصل إلى عتبة الإقدام على الإجهاض، فلا يمكنني أن أتحمل ثقلا آخر جثم بوزره من رحم المفاجأة، وفي الأخير استسلمت لواقعي على أن استقر بسكن المدرسة تفاديا لأعباء ومتاعب السفر نهاية كل أسبوع. لم أعرف معاني الوحم كما تتحدث عنه النسوة، ولم يكن هناك من يدللني بما

تشتهيه نفسي ، ويخاف إن لم يلب مطلبي يرتسم المشتهى علامة على جسد المولود ، بدأت أشعر بخفقان في أحشائي فيوقظ رغبة دموعي لأن تجود بسخاء لتغسل فيافي روحي الموحشة .

ما كان لي أن أخبره بالأمر، واعتبرت ما حدث يمكن أن يكون زلة عزباء، قد يستيقظ ضمير صاحب قضيتها ويصلح الوضع،ذلك أهون من دق مسمار أخير في نعشي ، ادعى أن الجنين ليس من صلبه، وعلي أن أبحث عن نسبه بين زملائي في المدرسة ، باتت عيناي تمطر وسادتي لأستيقظ في الصباح على شلل نصفي في الوجه، بجفن تدلى على عيني يكاد أن يحجب الرؤيا عنها ، وبشفتين مائلتين تدلت السفلى في اتجاه اليسار تكشف عن زاوية من أسناني، وقفت أمام المرآة ..؟ هي لا تشبهني ولست أنا، لكن هذا الوجه ببشاعته يليق بالسذج إلى حد كبير ليعانق القبح المادي قبحه المعنوي،هرعت في جنون إلى عيادة متخصصة فأفادني الطبيب أن العلاج سيأخذ وقتا، وأعلمني أن هناك احتمال بأن الجنين قد تأثر بارتفاع الضغط في مثل هذه الحالات، فبت أترقب مولودا معاقا لأم مشوهة الوجه، صادفت هذه الكارثة عطلة الصيف المدرسية، مما جعلني أواظب على جلسات التدليك لإعادة التأهيل مع العلاج بالأدوية، تعافيت بشكل كبير عدا ميل طفيف بالعين لا يظهر إلا مع التحديق فيها جيدا، وقتها أصبحت ضربات الجنين أكثر قوة، تجعلني انتفض لوخزها أحيانا، تبين أنني حامل ببنت سأسميها " دعاء" إذا قدر لها الله الحياة و أن تخرج من رحمي سالمة معافاة ، سيكون اسمها دعاء إلى

الخالق كلما نطقته الألسن حتى يقتص لي منه في الدنيا قبل يوم الحساب.

أقبل فصل الخريف ليحين وقت أوبتي إلى أجواء التدريس، بحمل زاد ثقله فلم يعد اللباس الفضفاض يخفي البطن التي راحت تختطف الصدارة باندفاعها إلى الأمام، قررت أن أرجئ الشهر الأول من عطلة الأمومة إلى ما بعد الولادة، مواصلة تحدي العمل إلى أخر لحظة، بدأت الآلام تطرقني صباحا في نوبات متقطعة ، أيقنت أنني على مشارف الولادة هذا اليوم، ليزداد الوجع بعد العصر فقد اكفهرت السماء بغيوم داكنة تنبئ أنها حبلى أيضا بأمطار غزيرة، أكتم كل هذا لا أدري ما أفعل، وجعي يتوزع أرصدة على جسدي المنهك ونفسيتي المنهارة ،فلم أحضر لهذه الآتية أثوابا وردية أو سريرا يتأرجح وقد علقت عليه كرات ملونة، كما أن أمي غائبة عن تحضير أكلة " الزرير" التقليدية من طحين القمح والحمص المحمصين ، ولم تبتع لي من سوق مدينتنا ملابس صوفية تلف جسدي في شتاء مستبد ببرده في هذه البقاع، توارت الشمس وراء خطوط الشفق وأخذت القرية تغرق في العتمة شيئا فشيئا، ليكشر وجع عن أنيابه وهو يغرسها في أحشائي لم أعهد له مثيلا في حياتي، كنت أظن أن الأمر يمهلني إلى غاية الغد على أدنى تقدير ... حان الوقت لأعلم زميلتي " شفيقة"، ما إن درت بأمري حتى وبختني كثيرا على تخاذلي ومماطلتي في إخبارها، بدأت الأتربة تلين لقطرات المطر لتشكل عجينة من الوحل تعلق بالأحذية في هذا المنحدر نحو الطريق العمومي ، كنت أتكئ على كتف "شفيقة " بينما كان" عبد الرحمن " حارس المدرسة يحاول تبديد تكاثف الظلام في نطاق

المسلك، لينتهي بنا الأمر أمام بيت كهل يملك سيارة نفعية، تسلقت في عناء متن ظهرها كما تفعل أي بهيمة سبقتني إلى هذا المكان، رزمة من التبن هنا أسعفني وجودها لتكون وسادة لمرفقي، وعجلة احتياطية تستريح في هذا المكان، ربما لفظت هواءها ولم يكن له الوقت لإنعاشها بأنفاس أخرى،رائحة نتنة تنبعث من قعر صندوق تعفنت فيه حبات من الطماطم، السطح مبتل عن آخره والسقف المتهرئ لم يعد يقاوم الماء لينفذ من ثغور كثيرة ،كنت أجلس بداخلها ككتلة لا تعرف الثبات، يتزحزح جسدي ذات اليسار واليمين مع المنعرجات، حتى وصلنا دار الولادة بعد ساعة من الخض و كأنني "شكوة" لبن ، وجدت صديقتي "نسمة"مناوبة ... فحصتني في شهري السابع من الحمل وتعرف بعض تفاصيل قصتي، ما لبثت كثيرا لأدفع بدعاء إلى هذا العالم بصمت ودموع تنهمر، حتى صرخة الوجع لبست ثوب الأنين، فقد استنفذت رصيد الصرخات قبل هذا ، وسددت فواتير الألم غير منقوصة، كما أرادت سذاجتي وقلبي الذي أخطأ الاختيار وخفق للمعاناة بدل السعادة، أخذتني نسمة إلى بيتها بمحاذاة العيادة وباتت تسهر على صحتي مع زوجها الطبيب لمدة ثلاثة أيام لأعود إلى أهلي أحمل بنتا وكثيرا من الندم والألم.

وقفت على خراب هد كياني، وأقعدني شتاتا لا يمكن لأحد أن يجمعه، وتصدعات يصعب رأبها وترميمها من جديد، فقدت كل رغبة في الحياة وأصبحت صورة الرجل في حياتي توازي القرف والاشمئزاز ، والسيف الذي يمتد في جوفي من البدء إلى النهاية، لا يحفزني شيء لأنظر إلى هذه الحياة بعين الرضا، أو يغريني طموح قد يرتب زعزعة الثقة بداخلي،كل

الطرقات أمامي أراها سدت بمتاريس تحجب كل بارقة أمل تلوح من ورائها، استسلمت لضعفي وقلة حيلتي وأنا أضرس بين أنياب وجع صير حياتي جحيما والفاعل رجل متعلم، أنيط له دور تربية الأجيال وتعليمها، لو كنت ضحية رجل عاش الجهل وأقتات من نزر الحرمان على هوامش الحياة لتجاوزت المحنة، وألصقت العار بتلابيب مجتمع لا يرحم وساسة فاسدين وانتهازيين متوحشين يخطفون اللقمة من أفواه الجياع لتملأ جيوبهم، أي وجع هذا حين تجد امرأة ظهرها عار من رجل يسندها في لحظات ضعفها؟ ولا يكتفي بهذا العراء الذي يكشف الوهن ، ويفتح أبواب الطامعين على أشكالهم ، بل يطعنها بلا رفق في عفتها و هو يجعل من نطفة قذفها في مرحاض عمومي منتشيا بعادته السرية، أكثر قداسة من تلك التي بعثت حياة إلى هذا الوجود، بمجرد أنه حقد على من احتوتها في أحشائها ذات يوم . تمادت السياط تجلدني وتماديت أنحني لها بظهري لتشبع نهم الجلادين في التعذيب، لكن حين يتعلق الأمر بهذه البراءة التي ملأت علي الحياة فإنني سأكون لبؤة شرسة لأجل أن أفتك لها حق النسب والتمتع باسم عائلي، لا يكفي أني سجلتها في عيادة الولادة بعقد توثيق مبرم بيننا بلا دفتر للحالة المدنية، بل سأرغمه أن ينفق عليها كأي طفل فرقت تداعيات مجحفة في الحياة بين والديه .

كان الاعتقاد السائد لديه أنني سأختفي أجر أذيال الخيبة بجبني وسذاجتي، ألملم بقايا امرأة على حافة يأس، لا تقوى على نش ذبابة من حولها، كيف لها أن تجابه خبثه ودهاءه ، جمعت قواي الجسدية وتسلحت بمعنويات أكثر،

ووجدت أنه لم يبق لي ما أستفيد منه أو أخسره، رفعت قضية إهمال عائلي أمام القضاء لينصف ابنتي " دعاء".

لم يمر وقت طويل حتى بلغه محضر قضائي بإشعار للمثول أمام العدالة، لأجده هذه المرة ينتظرني أمام بوابة مدرسة حولت إليها هذه السنة، وما إن رأيته حتى تملكني الخوف والفزع لشرر من الغضب كانت تطلقه عيناه ليبادر:

-هل أردت أن أمثل أمام القضاء لأنشر غسيل فضائحك أمام الملأ ؟

قطبت جبيني باستغراب ثم رفعت رأسي في كبرياء، وأنا أصب كل ضوء عيني في عينيه مجيبة:

ماذا تقصد لا أفهمك ؟ ولو كنت أفهمك فعلا ما رميت نفسي في جحيمك.

دس يده اليمني في جيبه وأخرج ورقة وهو يقول :

هذا اعترافك بالخيانة مكتوب بخط يدك، إن لم تسحبي دعواك القضائية مؤكدة على تفاهم ودي، ستجدين عشرات النسخ منها تعج بها ساحة المدرسة غدا .

تمالكت نفسي حتى لا أسقط لهول ما سمعته وصحت في وجهه أنت مجنون ، لا شك أنك مجنون، افعل ما يحلو لك .

انصرفت من أمامه بعد أن أوقفت سيارة أجرة، واختفيت عن ناظريه لا يلوي لي على أثر، كنت أحث السائق أن يسرع أكثر قبل أن يغلق المحامي باب مكتبه، طرقته لا أكاد أستأذن وأنا أعيد تفاصيل ما حدث ، فأخذ يضحك ملء شدقيه قائلا :

أتصدقين هذا الهراء يا أستاذة هي مجرد محاولات مذبوح يتخبط، ليتخلص من مسؤولياته، وقد ينفع الأمر معك إذا كنت تفكرين بسطحية .
لأردف:
إن الأمر يتعلق بطهارتي، سأرفع عليه قضية قذف وطعن في الشرف وأنا مستعدة للخضوع لتحاليل الحمض النووي لتأكيد النسب.
لا تقلقي سيدتي سيكون مهزلة ومحل سخرية إذا رافع بهذا الإدعاء لم أسمع في تاريخ القضاء باعتراف من هذا النوع، إلا إذا وقع تحت تهديد مسدس موجه نحو الرأس على أهبة أن يحرر رصاصاته في أي لحظة.
هدأت أنفاسي اللاهثة وشعرت بنوع من الارتياح، وأنا أسمع كلامه الذي لامس شرفات اقتناعي، عدت إلي شقتنا القديمة،(هي هبة من أبي) ، غيرت أقفال الباب الخارجي، فثمة نسخ من مفاتيحها عنده، ولا شيء يجول بخاطري سوى أن يؤجر أحدهم، ويدفعه اتجاه البيت ليفبرك خيانة تتجلى بأركانها المادية، لبثت قليلا فإذا بجرس الهاتف يرن،ما إن رفعت السماعة حتى بدأت أسمع أسطوانته المشروخة وهو يساومني بلا خجل أو حياء، يستعرض عضلات رجولة مريضة، ليستبد ببقايا امرأة .
ألم يكفه أنني أسدد أقساط القرض الاستهلاكي من راتبي حتى اليوم ؟
و لم تكن لي نية أن أشحت في بابه،إنما كنت أرمي إلى وضعه في صورة الأب معنويا لا أكثر، و أن أرد الاعتبار لابنتي أمام أولئك الذين كسر كبريائي أمامهم، وأراد أن يدنس شرفي ويغرقه في الوحل، لست راغبة في دنانيره، فأجرتي كفيلة بأن تحقق لدعاء اكتفاء لكل ما تبتغيه، سأجعل منها عفيفة متعلمة لا تفقد حريتها بدافع الحاجة، ولا تتنازل تحت إي

تأثير ابتزاز أو إغراء، كانت حياتي مخبرا كافيا لأن أجعلها تستفيد من عثراتي ، ولا تستجدي حب رجل وتقتفي أثره وهي تدوس على كرامتها دون أن تنتفض العزة في وجهها، تركته يهذي كالمسعور وأغلقت الخط دون تردد ، حدقت في ابنتي وبادرت أناغيها بسباتي متناسية حديثه وكأنه لم يكن .

بلغت "دعاء" الثالثة من عمرها، وأصبحت أختزل حياتي في الاهتمام بكل ما يوفر لها الراحة والنمو السليم ، لم يسبق أن رآها أبوها رغم أن القضاء رخص له ذلك في وقت معلوم ، أرادت الأقدر أن ترتب موعدا على طريقتها، لتذكرني إن نسيت فهي تمهل لكنها لا تحترف النسيان .

استفاد من شقة دفعت الكثير من مالي وذهبي الذي وضعته بين يديه ليسدد أقساطا من ثمنها قبل الزواج، ظل يتردد عليها يضفي لمسات على ذوقه في الديكور والصباغة ، وهو يحث الحرفيين بالتعجيل في الوقت وتسريع وتيرة العمل ، نقل إليها أثاثا جديدا مستغنيا عن القديم لبائع الخردوات بثمن بخس ، وفي غمرة زهوه وانتشائه وفرحته لم يبق غير تثبيت صحن لاقط للقنوات ، وضع كرسيا على مائدة في شرفة الشقة، وراح يضغط على صدر الجدار بمثقب كهربائي، فقد توازنه ليترنح في وضع لا يحسد عليه مندفعا وراء الستار الحديدي خارجا ليهوي من الطابق الأول أرضا .

نجا من الموت بأعجوبة لكن بكثير من الجروح والكدمات، وكسر في الجهة اليمنى من الحوض ليفقد مشية الكبرياء بهامة مرفوعة، ويكون العرج مصيره المحتوم ، لن تغفر لي ابنتي حين أخبرها مستقبلا، إن لم

أقف معه في مصيبته ، رغم أنها جاءت من نطفة خبيثة كلها استغلال وحقد وأنانية ، لكنني أدرك أن ما ورثته مني سيطغى على كل صفاته الدنيئة .

أخذت معي " دعاء" إلى المستشفى، فما إن دلفت الغرفة حتى فغر فاه من الدهشة، وشحب وجهه وكأن ملك الموت الذي تجنبه أثناء السقوط ، عاد إليه اللحظة، اقتربت منه نكست رأسها ليطبع قبلة على خدها في ذهول مستأذنة بالخروج ، حتى لا يصادف وجودي دخول زوجته ولا أستبعد أنها شريكته في المؤامرة بسكوتها، فلا يعقل أن تعلم دون أن تتهجم علي وهي تصفني بخاطفة الرجال،وقد تكون اقتنعت بمشروعه الاستثماري وجدوى فك الشراكة بلا خسائر وبربح معلوم.

أصبحت أرتاد بيتنا مرتين في اليوم أثناء عملي ، أضع "دعاء" عند أمي صباحا، وأعرج عليه مساء لتعود معي إلى البيت ، و أنا أتابع تغيرات كثيرة، طفت بشكل سريع على مشهد يومياتنا ، فقد استثمر أخي "صالح" علاقات أبي مع النافذين في السلطة وأصحاب المال و رؤوس الإرهاب من (التائبين) على تبييض أموالهم في العقارات ومعارض السيارات، واستنزاف العقار العمومي بمشاريع وهمية، تضخ فيها البنوك أموالا كبيرة لتنتهي إلى حساباتهم دون أن يظهر لها أثر على أرض الواقع، بتغطية من شركاء في الغنيمة، ليس من الصعب أن أدرك هذا فالإعلام يشفع قهوتنا الصباحية بمثل هذه المظاهر من الفساد، التي استشرت في المجتمع بلا رادع وجعلت الكادحين يكابدون شظف العيش، كانت رغبة الكتابة تجعلني أخوض في هذه مسائل الوعي والتربية والخواطر والقصص ، لأنسى

همومي وأستمع إلى نبض حرفي على دفاتري فكنت أحيانا أرسلها إلى عنوان جريدة أو أكثر ، فتنشر بعض نصوص المشاعر أما المواضيع الحساسة في أحسن الأحوال تعود إلي رسالة على بريدي الإلكتروني (مقالك قيد النظر) .

استطاع أخي صالح خريج التسرب المدرسي، أن يكون إمبراطورية من المال في ظرف قصير من عقارات ، وقوافل من مركبات نقل البضائع وغيرها، لا تتأتى له بالجهد لو عاش أضعاف عمر نوح، استورد البضائع من الصين بسجل تجاري مقيد باسم مختل عقلي، وأغرق السوق بنقود مزورة معدنية داخل غلاف بطاريات اسطوانية الشكل بتمويه محكم، وحين أوقفته الشرطة خرج من القضية كالشعرة من العجين ، ولم يجدوا دليلا واحدا لإدانته .. أصبح أقرانه من ذوي الشهادات العليا، ينظرون إليه بعين الحسد، أو يخطون نحوه متوددين في مجتمع سادت فيه قيم الجهل والفساد، وراح ما دونها من سمو يعد سقط متاع ... ظلت كنية " أخت صالح " درعا يقيني ويلبسني هالة من الهيبة، ولو كانت الحال كما ادعى " منصف" عاهرة وخائنة ما كان يجرؤ بل سيفتح عينا ويغلق أخرى، فهو من شاكلة الانتهازيين بامتياز ..احتكاك أخي بهذه الجوارح التي لم ترق إلى أدبيات الحيوان المتوحش، جعله يتفوق بتسربه المدرسي على"منصف" الذي تبين أنه محتال صغير يدعو للشفقة أستغل ضعف امرأة أحبته، و لم تتركه الأقدار يسعد بغنيمته طويلا، لينهض من فراش موت كاد أن يكون محتوما بعاهة مستديمة .

أصبح أخي صالح حلم كثير من الفتيات ومطلبهن ، تتهافتن عليه وتحرصن على التقرب منه والتودد إليه، ليقع في شرك إحداهن في وقت قصير وتتم تفاهمات الزواج فهي ابنة سياسي كبير عزز من مصالحه أكثر ، ليدوم الفرح أسبوعا كاملا أحرقت فيه المفرقعات والشهب النارية المندفعة نحو السماء ما يفوق دخلي من التدريس لمدة سنة كاملة .

شدد " طارق " أن يضع علامة ترشده على الصفحة التي توقف عندها وهو يقرأ ما كتبته "حنان " ودون أن يفكر كثيرا شكل رقمها على شاشة هاتفه وضغط على زر الاتصال، تواصل رنين الهاتف على نوبتين دون أن يتلقى جوابا ، فاستحى أن يفتح المجال لنوبة أخرى واعتقد أن هاتفها في وضع صامت . انشغل عم كان يرمي إليه من هذه المكالمة بتفحص بريده الالكتروني وكتابة ردود للمتصلين، امتدت يده إلى فنجان القهوة التي لا تفارقه ليرتشف جرعة باردة، وجد أن يكتب لها رسالة نصية ، فهي لا تحوز على رقمه بل سلمته رقمها وتركت له خيار الاتصال .

" مساء الخير أستاذة اتصلت بهذا الرقم ولم ألق جوابا، أتمناك بخير".

لم تمض ثوان معدودة لتعاود الاتصال:

مساء الخيرات أستاذ لم أكن مشغولة، ولم يكن الهاتف في وضع صامت فلا مبرر لذلك (للتأكيد)، اعذرني لا أرد على الأرقام غير المسجلة في لائحة المتصلين في الوارد .

أتفهمك أستاذة وأحترم قناعتك ، لا داعي للاعتذار .

أردت أن أخبرك بأنني قرأت ثلاثة أرباع ما كتبت، استمتعت بالسرد مع وجود انتقال سلس من لوحة نصية إلى أخرى وتكثيف في الأفكار.

لترد: شرف كبير أن تقرأ لي ، هناك الكثير في جعبتي تمنيت أن يكون لي نفس طويل لإضافة صفحات أخرى، فلدي انشغالات أخرى وأتابع وعكة صحية ألمت بي مؤخرا.

طارق : تمنياتنا بالشفاء، على الأقل كانت فرصة لنطمئن عليك أتمناك بخير ،حين افرغ من القراءة نتحدث بشكل مستفيض.

حنان : شكرا جزيلا على اهتمامك ولطفك

طارق : طاب مساؤك ، دمت بخير مع السلامة .

عاد يبحث عن وضع مريح للجلوس فلم تخمد جذوة الرغبة في القراءة، فهو مصمم على الوصول إلى آخر كلمة، وإن تأخر في الخروج من مكتبه .

****

الفصل الخامس

طرقت "دعاء" مشارف الرابعة عشر من عمرها ، تنهم من شغف الحياة في عز ودلال ، تحفظني كما حفظت حروف الأبجدية ، تستشعر قلقي عليها، لتجعلني أذعن لطلباتها مهما تجاوزت سقف المعقول، لم أكن أعرف في هذه السن مساحيق التجميل، لتكون لها ما تبتغيه من أصباغ بألوانها ومراهم بأنواعها ، وخزانة بعرض حائط احتضنت في جوفها أغلى الفساتين والألبسة، دفعت بها إلى مدرسة خاصة أسدد مبالغ كبيرة، ولم أدخر جهدا في توفير رفاهية مطلقة، لتنعم بالراحة والاستقرار المادي والمعنوي ، ألاحظ حضورها في القلوب بقامتها الممشوقة وجمالها الذي بدأ يستفز العيون، وكيف يمسح العابرون جسدها بنظرات في خلسة أو عن قصد بغية سرقة لحظة إمتاع من زمن هارب، عبثا أن تقتنع بأن الحياة في هذه الشقة خلقت لدورين أنثويين، فثمة صوت لدور ثالث تبحث عن صداه بين الجدران لكنه يظل غائبا عن حياتها ، فجوة كبيرة تحس بها و لا تفصح في التعبير عنها، أدركت للمرة الثانية فداحة غياب الأب وما لحقني من هذا الغياب، مللنا دور الأم الحنون والبنت المطيعة التي تعترف بتضحيات والدتها وتقر بها ولاء وامتثالا، لا تخالف لها رأيا و لا ترفض طلبا، كانت ترى في انتقادي لبعض تصرفاتها إخلالا بعقد العطف والود بيننا، وانتقاصا من ثقتي فيها ، وتعديا صارخا على حريتها، نتشاجر على إطالة الأظافر والسروال الممزق على الركبتين صرخة الموضة في مزاحمة الأثرياء للفقراء، أو التنازل لتخفيف صرخة الوجع والحرمان في صدورهم . أصبح الشجار ملازما ليومياتنا، لتزيد جراحي نزيفا وأنا أرى خصلة من شعر الناصية تستسلم لدبيب الشيب في غفلة مني، فلم يعد

لي اهتمام بزينتي ولمن أجتهد في صون ما بقي يليق ببقايا امرأة، هدها حظ عاثر وسكنها يأس دائم .

لم يعد لي انتظار حافلات النقل في مواقف تعج بالواقفين وأعناقهم تشرئب متطلعة إلى مد البصر ، يمنون أنفسهم بظهور حافلة تتهادى، ألج إلى جوفها بعناء كبير ، ونادرا ما يسعفني الحظ في أن أجد مقعدا أدفع إليه بجسدي ، وأحيانا أغادره منتفضة وأنا أكتم غضبي، فثمة من لا يتورع في التحرش بحركاته ونظراته، وفي الممر بين صفوف الكراسي تتلاصق الأجساد وتفرض الضرورة بأن يحتك موجبها بسالبها، لتشهد وجه الكبت بلا قناع من خلال احتكاك متعمد بمؤخرة أنثى تجاهلت أو رغبت مرغمة ، وقد تلتفت أخرى والشرر يشع من عينيها لتبتعد بخطوة أو أكثر ذلك أقسى ما يمكن أن تفعله، بينما يظل محترف الاحتكاك غير آبه يتجاهل الآمر من خلال النظر إلى ما وراء زجاج النافذة ، وهو يكتم أنفاسه التي تواترت مع نبضات سريعة. أو ترى أنامل تتسلل إلى جيب أو حقيبة يد، محاولة سلب هاتف أو مبلغ من المال، كل هذه المشاهد تجري تحت عيون كثيرة، ترقبها في تجاهل أو خوف من عواقب وخيمة ، فلا أظن أن الفاعلين بشجاعتهم واندفاعهم غير قادرين على ردع كل من سولت له نفسه انتقاد أعمالهم ، فشعار الحافلة في الرد على كل متذمر " من عاف الحافلة عليه بسيارة أجرة ليكون سلطانا".

كنت أقود سيارتي في طريق الأوبة من العمل في مساء نهاية الأسبوع، عرجت على متجر للحلويات ثم بادرت لاقتناء بعض الفواكه، فقد قررت أن يكون عشاء فاخرا، لتزدان طاولة الأكل بكل ما لذا وطاب

بسماطها الأحمر ومناديل بيضاء ملأت أفواه الأكواب الفاغرة، تتوسطها باقة من الورد والياسمين مع موسيقى هادئة، هرعت إلى الحمام أسكب ماء دافئا على جسدي ووضعت زينة خفيفة بأحمر شفاه قاني اللون، فهو يناسب فستاني الأحمر الشفاف بشرا شف من الحرير، يشرح تفاصيل جسدي ولا يحرم العين أن تسرق لحظة اشتهاء تمنحها شفافيته ، تعمدت رش بشرتي بعطر فرنسي بسخاء كبير، أطفأت أضواء الشقة عدا ضوء خافت لشمعتين راحتا تجاهدان في تمزيق الظلام، يرتسم انعكاس لهيبها متراقصا على أكواب وأواني خزفية نضدت بإتقان ، دق الجرس هرعت لأفتح الباب أين تطوقه ذراعاي من الخلف أغمضت عينيه بكفي يدي، وحرصت أن يقترب من الطاولة برفق، أجلسته على مهل لأهمس في أذنه قائلة " عيد زواج سعيد"....تستفز إشارة مرور حمراء نظري لتنتشلني من حلم يقظة، سأعود إلى البيت وربما ينتظرني خصام مع ابنتي على أتفه الأسباب، لكن رحلة الحلم أيقظت بداخلي اهتزازات، وبت أسمع همسات في أذني تشكو مواسم الحرمان التي أعيشها على هامش حياة بشبهة أنثى، لا أنثى كاملة الحقوق لها أن تحس وجودها وكينونتها في أنوثتها التي راحت تفتر فيها مباهج الحياة والشغف.دلفت باب البيت على غير الحلم الذي رحت أتخيله، رمقتني "دعاء " بنظرة جانبية لم استلطفها، كما لم أهتم لأمرها وبادرت أغير ملابسي، لكنها لم تمهلني إلا دقائق معدودة لتثور في وجهي ساخطة عن توقف تدفق " الانترنيت" فقد نسيت تسديد فاتورتها ، أعدت ارتداء ما نزعت في صمت وعدت

أدراجي إلى الشارع لأشتري بطاقة شحن، فأنا أعلم ستكون ليلتي سوداء إذا تقطع عنها حبل الحياة كما أسميه .

صادفت أمي أثناء عودتي في مدخل العمارة ، فكان وقع المفاجأة سارا، عانقتها وأفرحتني طلتها غير المنتظرة ، واستحلفتها أن تبيت الليلة عندي ففي جعبتي فيض من غيض، ولا أجد إلا مؤانستها تخفف عني شيئا مم أنوء بثقله ، غير أن ما راحت تسره أضفى ظلالا أخرى من مزاج ينبئ بتداعيات متعبة تزعزع ثقتها في أبي، كانت توحي لي من أن شعور الأنثى لا يخيبها أبدا ، فقد لمست نفورا من أبي يستفحل يوما بعد يوم وإهمالا لا تجد له أي تفسير مقنع إلا بالوقوف على قرينة تدينه بالانغماس في حضن امرأة أخرى، حاولت أن أبعد عنها طوفانا من شكوك تغرقها في دوامة من القلق، لكنها باتت تصر على أن إحساسها لم يخيبها يوما واحدا ، وأنها خبزته وعجنته وتعرف على أي جنب ينقلب .

استشرفت في عينيها مؤشر الاقتناع بكلامي، بأنه لم يلامس المأمول في أدنى درجاته ، لفت جسدها في لحاف ولملمت أوجاعها ترمي بها في حضن وسادتها، رأيتها تستسلم للنوم على غير رغبة، وبات الأرق رفيقي ومؤنسي في ليليات امرأة محطمة لا يمكنها أن ترمم الآخرين ، فكلماتي مبعثرة مشوشة، يسكنني النسيان ويختطفني التيه إلى فراغات تفتح أفواه معتمة بحجم السماء.

انخرط أبي في العمل الخيري تحت غطاء جمعية، تهتم بمساعدة المحتاجين والمعوزين، وبقدر ما كانت تسهم في رفع الغبن عن آخرين فأنها عملة بوجهين وظاهرها لا يكشف عن خبايا باطنها، تدثر الابتزاز وتنشد

رصيدا للوعاء الانتخابي يستغل لتوجيه دفة الأصوات، ومنصة للمراءاة والتباهي بالفعل الخيري لدرء أي شبهة في السلوك و مصادر الكسب.
تطل علينا من باب المفاجأة "لطيفة" وهي أرملة في العقد الثاني من عمرها وأم لطفل، تفحم زوجها في مشهد استعراضي بساحة عمومية، تناقلته وسائل الإعلام وشاشات التلفزيون، وهو يعبر بطريقته عن تذمره وقنوطه من وضع بائس راح ينوء تحت وطأته، فلم يجد سبيلا للخلاص من البطالة وانعدام المأوى إلا بصب البنزين على جسده ونفث لهب ولاعة فيه ، ليبدو فزاعة ملتهبة تتحرك في كل الاتجاهات، ولم تستطع أيادي المسعفين إخماد اللهب قبل أن تخمد أنفاسه للأبد، استقبلها بمكتبه وظل يغدق عليها من مساعدات الجمعية ومن جيبه الخاص ، فتوطدت بينهما علاقة متينة ، ليكاشفها رغبته في الزواج منها، فلم تجد مهربا لكثرة أفضاله عليها،كما لم تفوت فرصة تنتشلها من أنياب الفاقة والحرمان ، فعقدا قرانا عرفيا باركه الملتحون غير المعترفين بعقود الزواج المدني.
تناهى الخبر إلى مسامع أمي لتثور ثائرتها وتقلب البيت بما فيه ، لكن حكمة أخي وصلابته اللتان اكتسبهما جعلاه يجد مخرجا ، وهو يستغل تصريح أبي بأنه لجأ إلى ذلك من باب الرأفة والشفقة ، ليسلمها مفاتيح شقة اشتراها مقايضة بفسخ قرانها، فلم تجد بدا من الخضوع لإرادته بمقابل ، وإذا عاندت قد ترغم على ذلك لتخرج من مغامرتها صفر اليدين.

كان أبي لا يستطيع أن ينظر في وجه أمي إلا بنظرات جانبية يتهرب من قوة نظرتها وحدتها ، وفيها من اللوم ما يغرقه في عرقه ، وكأنه طفل صغير يحاول أن يداري عن فعلته ، باتت الحادثة تعزلهما في غرفتين قرابة سنة كاملة ، اقترب موعد زفاف أختي "سعاد" وبات من الضروري أن يفرض البرتوكول نفسه لتلميع الواجهة وقاما بالدور على أحسن وجه يوم العرس ولم يلحظ أحد فداحة الشرخ بينهما .

ظل الحرمان ناقوسا تتردد أصداءه بداخلي ، والتآكل يفرم أنوثتي يوما بعد يوم ، بت أكتم كل خلية تتحرك بداخلي أو تجرؤ بالصراخ لأن يسعفها رجل ، فقد نسيت خريطة هذا الجسد كل إحداثية قد تكون محطة للأخر ، فهو قفار تفتقد للحياة ولا يمكن أن تزهر له مواسم ، فعقلي الباطني والظاهري اقتنعا بأنني بأقصى نقطة في القطب الجنوبي و في شتاء أبدي.

رن هاتفي الجوال و على غير عادتي لم التفت إلى رقم المتصل لأفتح الخط مباشرة .

ألو...مساء الخير"حنان" كيف الحال؟

اعتصمت بالصمت لحظة لأبحث في أغوار الذاكرة عن هذا الصوت ، مسحت تلافيفها فلم يبن له أثر ،أغلقت الخط لكنه عاود الاتصال وتبين لي أن الأمر قد يكون مهما فهو يعرف اسمي.

نعم ما الأمر أنا "حنان ".

ألم تعرفي صوتي .. أنا " منصف" أيمكن أن أنسى بهذه السهولة .

لأرد : من أين أتيت برقمي ؟ ما الذي فكرك بي ، هل حان الوقت لتدمير ابنتي كما دمرتني.

لا لا إطلاقا ، لا تتوجسي من هذا الجانب تصلني أخبارها وأعرف أنك ما قصرت معها أبدا،

- أرد بحزم :حسنا ، وضحت المسألة ، ماذا تريد ؟

- اشتقت إليك ، أريد أن التقي بك .

رددت بعنف : أيها الأخرق صيرتني إلى رماد ، وتريد أن تتمرغ فيه كالعنقاء لتكتب لنفسك معي حياة أخرى ولو في الحرام ..ثم قفلت الخط وأوقفت الهاتف عن الاشتغال.

بت أتقلب في فراشي لا يعرف النوم طريقه إلى أجفاني ، وباتت عيناي تحترقان لانهمار دموع لا تريد أن تتوقف ، وشهقات بين الفينة والأخرى تفرج عن بكاء مرير تتقطع نبراته ، كيف يفعل هذا ؟ يرميني كبضاعة فاقدة الصلاحية ، يتهمني بالعهر والخيانة ثم يأتي عليه زمن ليريدني أن أكون عاهرة بامتياز وعلى مرآي من ابنته ؟ ..أكيد أن هذا المخبول نال الإعاقة الجسدية ويقترب من إعاقة ذهنية ..كيف له أن يفكر بهذا بالله عليه ؟ ما كان له أن يفعل إلا وهو على دراية تامة بمدى تمسكي بعفتي ، واستشرف أن الحرمان استبد بقهري حد الاستعباد .

تحاملت على نفسي هذا الصباح متجهة إلى حمام شعبي ، لعلي أسعف هذا الجسد المنهك من ليلة أرق ، وأسترخي على سخونة أرضيته وسط بخار متصاعد ، فلم أدخل حماما كهذا منذ ولادة " دعاء" بأربعين يوما، فقد قيل لي وقتها أنه مساعد على تخطي آثار النفاس والتخلص من كل ما علق

بالجسد ، دلفت هذا المكان الذي لا توجد به مرآة صادقة كالتي تضعني كأنثى أمام جمع كبير من إناث توزعن على أرضيته متفرقات هنا وهنالك على مختلف أعمارهن وألوانهن ، بين فارعة في الطول ومكتنزة باللحم تكورت ككتلة يسبق نهداها لمسح بلاط الأرضية ، وصغيرة في السن تتأهب ثمارها للانبلاج على عجل ، أخذت مكانا في زاوية تجعلني أرصد حركاتهن ، وأنا أعد سنوات كثيرة غيبتني عن هذه الأجواء ، تغيرت الأسعار والوجوه ، وفرض التطور وجود لافتات على الجدران تنبه على منع صارم لاستعمال الهاتف المزود بكاميرا ، ومخالفة التعليمة تجعله عرضة للتفتيش والمصادرة ، سكبت الماء على جسدي لأشعر بحالة من الانبساط وتجاوب للعضلات بالاسترخاء، بدا بطني يتهدل قليلا نحو الأسفل لكنه يبقى محافظا على وجاهته مقارنة بنظيرات لي في السن ، أخذت أمرر رغوة الصابون على مناطق من جسدي ، في حركة بطيئة وبحذر مخافة أن أوقظ المارد الذي يقبع في سبات شتوي بداخلي ، فأنا ظللت طول هذه السنوات أفرض على يدي منطقة حظر فلا تقتربا أبدا من الأماكن الآيلة للاشتعال في أي لحظة ، التفت مني سيدة بجانبي عارضة خدمة لتدلك ظهري ، أحجمت في بادئ الأمر ثم رأيت أن ذلك إلا من باب تضامن يفرضه عرف الحمام ، أخذت أناملها تهوي صعودا ونزولا من أعلى كتفي حتى الردفين ، فتغرقني في شعور غريب بدأ الدفء يتحرش بطبقات الصقيع ووجدت أن الأمر راق لي كثيرا ، وأن استيقاظ الأنثى بداخلي بات قاب قوسين أو أدنى ، التفت إليها شاكرة وسكبت على جسدي ماء كاد أن يكون باردا عن غير قصد لكنني رأيته أمرا جاء في

وقته، كانت أكثر النسوة ما إن يقترب وقت خروجهن من الحمام ، حتى يتوجهن إلى زاوية شبه مظلمة تقبع هناك غير بعيد يحرصن فيها على التخلص من شعر الإبطين والعانة ، نكست رأسي إلى أسفل وتبين لي أن الاهتمام لا يجدي نفعا ، فلا حاجة لي بحصاد حقل لا يوجد من يحرثه ، تقدمت مني امرأة مسنة تبدي رغبة في خطبتي لابنها المطلق وهي تؤكد إن كنت أخت صالح ، أجبتها أنني "حنان" وقررت أن أعيش لابنتي ، ولا توجد لي نية في الزواج .

ألفيت نفسي أعيش فراغا كبيرا ، أجتر آلامي في صمت واحتراق وأهدر وقتا تسلل مني في غمرة هذا الاجترار ، عدت إلى هوايتي القديمة أغرق في القراءة ، لا يغادرني كتاب في سيارتي أو على مقربة من سريري ، كما أجهز على رتابة وملل ، حين أكون في بهو مدرسة حصص الدعم منكسة رأسي على صفحات كتاب ، أنتظر" دعاء":

تقرع الأجراس .... تتصاعد الشهب .... تنشطر .... يد خفية تنثر الأضواء في رحم هذا الفضاء المدلهم ... ترددات لصدى المفرقعات بألوانها ، تحاول إحداث طعانات مضيئة في جوف ليل مدلهم ، تفجر الفرح الكامن في النفوس مع قهقهات تتصاعد مع رغوة " الشانبانيا " .

كان الفرح هستيريا ، وفوضى الشغف عارمة حد الجنون .

كان مستلقيا على فراشه بالفندق .. يقلب صفحات جرائد ومجلات متناثرة هنا وهناك ... أحس باختناق غريب كأن الجو جاثم على صدره .

دفع بجسده خارج هذا المبنى الإسفلتي ... ضمه الشارع طفلا لا يعرف لغة حمق الشغف في هذا الشتاء الديسمبري مع أعياد الميلاد ... كان يسير

في الشارع على غير مقصد ، وكان يرى جسده كتلة غريبة غير متجانسة مع هذا الزخم من الناس الذين يضبطون ساعتهم على موعد مع لحظة جنون .

وقف أمام واجهة إحدى المحلات ، يتأمل شجيرة صنوبر داخل الواجهة زينت بأضواء وألوان كما حفت بأفخر أنواع "الشكولا " و الهدايا لحظتها أحس بحركة توقفت لتوها ، هبت عليه نسمة عطرة فتنعكس على زجاج الواجهة ملامح وجه يبدو ويختفي ، مع ومضات الأضواء . تلفت كان الوجه وجه حسناء تمردت خصلات شعرها في فوضى عارمة راحت تضفي على محياها سحرا وفتنة ،أثارت في نفسه رغبات شتى وبركانا يشهد لحظات انفجاره لكنه راح يكتم ما بداخله بقمع شديد .

كانت نظراتها توحي بشيء غريب ، لولا مسحة من الألفة خيل إليه وقتها انه يقف أمام محل جاره في قريته الصغيرة مشدود النظر إلى صورة فاتنة تسكن في إطار جوف الواجهة .

بادرت تحييه بلكنة عربية متعثرة ، حملق في تفاصيل وجهها الملائكي وقدها الممشوق بثوب شفاف فضفاض كأنها راقصة "الباليه"

لم يدم سير أغوار الذاكرة طويلا لتستيقظ الذاكرة ليبادرها بالتهنئة متجاوزا مقدمات هذه الصدفة ... وجد نفسه يسير إلى جنبها جنبا وهي تصدر كلماتها بلكنة تصيرها نغما ساحرا وبين الفينة والأخرى تصلح من شأن الخصلات المتمردة .... تتوقف ضربات كعب حذائها أمام مقهى راح يحتل رصيف الشارع . يستقر المطاف بهما على طاولة صغيرة فيسكب الانبهار نظرات تلتهمها بنهم ، بينما تقرأ في ملامح عينيه ابن

البلد الذي يشفى ظمأ صحرائها ، وقارب أمان ينتشلها من رحلة الضياع بحثا عن هوية الانتماء .... يتشعب الحديث لينتهي عند أخر جرعة من فنجان شاي باتفاق ....ذهب سائحا ترك زوجة وولدين ولم يعد .

ما إن أنهيت قراءة هذه القصة حتى نزلت دمعة ساخنة ، أدركت أن الرجال لا أمان لهم ، ولست أول امرأة في قائمة الضحايا ، فهناك من شطب ماضيه ، وقطع علاقته بفلذة كبده في جلسة شاي لم تكن عابرة ، فأي قلب هذا الذي يتملص من كل معاني القداسة في كلمة الأبوة ؟ وأي نزوة بجبروتها واستبدادها تذل رجولة ، قهرت بإرادتها كبائر الأمور قبل ؟

كيف يتحمل " منصف" كل هذه السنوات بأيامها وفصولها دون أن يتذكر أن له ابنة اسمها "دعاء "؟ ألم تذكره لحظة شوق وعناق من ابنته "خولة" أن له ابنة أخرى تحتاج إلى هذا الفيض من العطف والحنان الأبوي ؟

اقتنعت أخيرا أن الحياة تستمر في حاضرها ومستقبلها ، وأن قطيعة مع الماضي يجب أن تضع سدا يجعل من الالتفات إلى الوراء لا يظهر من خلف حجبه شيء ينغص ما تبقى من حياتي .

عدت إلى حياتي الطبيعية أحضر المناسبات ، وأخرج للفسحة بعدما فرضت على نفسي عزلة جبرية دامت لسنوات طويلة ، وأصبح اسم "منصف" لا يذكرني به سوى لقب ابنتي ، على الصفحة الأولى من كراريسها ، وشهادة ميلادها ، لم أوغل صدر ها بكراهيته ، ولم أفعل كما فعلت صديقة حيث تعمد إلى قهر طليقها بأفعال شيطانية لتهد نفسته وتذيقه إذلالا لا يحتمل فتلبس ابنتهما لباسا سافرا مع زينة

صارخة وتتحين وجوده بمقهى نشرت كراسيها على الرصيف ، ليمرا أمامه في مهل ، فتلتهم نظرات رواد المقهى جسدها الغض ، ولا يجرؤ على فعل شيء سوى أن يشد الرحال إلى مقهى آخر ، حتى تكتشف تواجده مرة أخرى لتعيد نفس الكرة .

علمت من " دعاء" أنها تعرفت على صفحة أبيها في موقع للتواصل الاجتماعي ، وكانت تتابعها من باب الفضول لتباغتني ذات يوم بأنها رأت أباها ، فكاد يغمى علي من هول الصدمة ، لكنني تمنيت ذلك لو ندم على أفعاله واعتذر عنها ، لتضيف أنها وجدت صفحته وهي تعج بالحكم والمواعظ والآيات القرآنية والأحاديث الشريفة ، لم أعلق بكلام مستفز كما لم أنهرها ورأيت من الأفضل عدم إعطاء الأمر أكثر من إشباع فضول حتى لا أفتح أبوابا يصعب غلقها ، وتفتح جراحي مرة أخرى على نزيف لا أتحمله .

عدنا هذا المساء إلى بيت أبي فثمة مناسبة سعيدة تتعلق بآخر عنقود ، فقد قرئت الفاتحة في خطوبة أختي " رقية " لتضع والداي أمام حقيقة لا مناص منها ، فقد ظلت ترعاهما وتتناقل رسائل شفهية بينهما ، فما استطاعت الأيام أن تذيب كتلة الجليد التي دأبت تبعدهما عن بعض بعد أن تزوج عنها في غفلة منها ، كانت ترى أمي في فعلته طعنة نجلاء لا تحتمل ، ولو صارحها بالأمر لاختلفت نظرتها للموضوع ، و قد تتقبل أعذاره وتبتلعها ولو على مضض، لكنها تحاول تناسي ما حدث لصالح رأب الصدع بينهما ، بيد أن حواسها ونفسيتها لا يحفزانها لهذه الخطوة ، وترى أن أي انفراج يبقى رهينة في ذمة الوقت .

خفت كتلة الأوراق المتبقية بين يدي " طارق" فأدرك أنه اقترب من النهاية ، وجد أن النص يتجه نحو انفراج للتأزم ، وأن حدة المعاناة خفت بشكل مقنع ، بعد ما استسلمت " حنان" لواقعها ولا مناص من السير قدما ولو في اتجاه التيار. مما يعني له أن فكرة الموضوع تتجه نحو نهاية بات يتوقعها ، وكعادته لا يفارقه قلم يخط به ملاحظات على دفتر صغير ، تعود أن يسجل عليه ملخصات لنصوص قرأها ، كي تناقش مع فريق العمل بدار النشر للبت في قرار نهائي بشأنها . استبعد نشرها في القريب العاجل ، واصل تسجيل ما يجب تسجيله رغم أنها باغته بقرارها الأخير،الذي بدا فيه تردد ملحوظ وهي تستبعد حماسا كانت تبديه في أول زيارة لها ، أطل على صفحته في موقع التواصل يقرأ تعليقات ويتفحص بريده الذي لا يخلو من رسائل كثيرة لراغبين في النشر ، أو مستفسرين عن آليات التعامل مع الدار ، والمهتمين بالخطوات المتبعة حتى ترى منجزاتهم طريقها إلى النور، سجل اسمها ولقبها في محرك البحث أملا أن يعثر على صفحتها ، ليمطره بقائمة طويلة لا تكاد تنتهي ، وهو يركز على صور شخصية فلم يجد لها أثر ، حاول التوغل في بعضها أملا في أن يرشده المحتوى إلى طريقها ، لينتهي به الاعتقاد أن يكون لها حساب باسم مستعار، حاول مرة أخرى فأوصله البحث إلى مشارف اليأس ليعود لقراءة ما تبقى .

.....

ألفت أمي في أوقاتي فراغها أن تجنح إلى زاوية صغيرة من حديقة البيت ، تتفنن في زرع بذور بعض الخضر ، وترعى نموها كما تقتلع من حولها أعشابا ضارة ، فكانت تلك اللحظات تساعدها كثيرا على التركيز ، والتخفيف من الضغط فهي تجد فيها متعة كبيرة كما يشدها حنين إلى مسقط رأسها في الريف وقد قطعت حبل الوصال مع ذكريات الطفولة فيه ، و لا حلية لها مع جشع إخوة حرموها من نصيب معلوم في الميراث ، فنذرت على نفسها أن لا تطأ لها قدمان في تلك البقعة وأوكلت أمرها لله و هي تعلن ضعف امرأة لا جاه لها في مواجهتهم و ذات يوم رآها أخي صالح على هذه الحال ليقول لها :

- ما كنت أعتقد أنك تتعلقين بالأرض إلى هذه الدرجة؟

مردفا : أليس من الأنسب لكما (يقصدها مع أبي) أن تعودا إلى الريف مهد ذكرياتكما لتعيشا حياة سعيدة ، بعيدا عن ضوضاء المدينة وما ينغص الحياة فيها من بواعث القلق والقرف ؟

لترد : وهل ترك لي أخوالك مساحة جلد ثور أعود إليها ؟ (ترسل تنهيدة من أعماقها فتعود أصابعها لاقتلاع نباتات ضارة)

ربت أخي على كتفها وابتسم ابتسامة الواثق من نفسه ، غادرها وفي صدره قلب أسد يتحفز على الانقضاض بلا رحمة ، كان يجيد دبلوماسية التفاوض ، واختيار أساليب الحوار ، فأرسل إلى أخوالي وفدا من العقلاء يطالب بنصيب أمي بالرفق واللين ، ويؤكد أنها فرصة لصلة الرحم ولم شمل الإخوة ، قد لا تتاح لهم مرة أخرى إذا ركبوا حمقهم وطيشهم ، وقد يؤدي به الأمر على الزج بجميع الأملاك إلى البيع بالمزاد العلني إذا تعنتوا ،

فقد أقسم بغلاء أمي عنده أن لا يتراجع في المطالبة بحقها ولا يوجد من يغتصبه منها وهو على قيد الحياة. تحججوا كعادتهم بأن فرز المنابات بالوثائق غير ممكن فكلها على الشيوع ، ولم يجدوا لها أي مخرج زاعمين بأنهم حاولوا حتى أصابهم الملل وكلت جهودهم واستسلموا لليأس .

لم يكلف أخي صالحا نفسه الكثير، فهو يعرف منافذ الأبواب المقفلة ، كما يفهم لعبة المصالح وكيف يذل المال طمع الرجال ويستدرجهم إلى مستنقع الفساد والرشوة ، توجه إلى محافظة الأملاك والعقارات ليلتقي مديرها بتوصية من أخيه النائب ، وهو يعرض عليه الوثائق وفي سياق حديثهما ، أعلمه أنه افتتح وكالة للأسفار ويسعده بهذا الافتتاح أن يهدي منحة سفر إلى فردين من عائلته في اتجاه " ماليزيا" بتكفل تام ، فأخوه النائب يغرقه بأفضاله وخدماته ، ترجم مدير المحافظة العقارية عرضه بالشكل الصحيح فراح موظفا لهذا الأمر يستقصي ملفات في الأرشيف ويجمعها لتصب في عقد واحد يحدد مناب جدي وتركته ، لم يستغرق ذلك أكثر من شهر ليضع "صالح" أخوالي في موقف لا يحسدون عليه ، فتكتفي أمي بقطعة صغيرة بنينا عليها منزلا نجتمع فيه في نهايات الأسابيع والعطل كلما توافرت الظروف لنا ، بينما فضلت أن يؤول ما تسلمته نقدا تعويضا من إخوتها لبناء مدرسة قرآنية حديثة مكان " الكتاب".

شدني الريف بحضن دافئ ، وطبع على نفسيتي الهدوء والسكينة ، فكلما اقتربت نهاية الأسبوع في أيام الربيع تتحفز إليه حواسي وتهفو إليه روحي وأنا أستعجل الساعات للحظة الانطلاق ، أحمل كتابا أو كتابين

للمطالعة ، بينما تأخذ "دعاء" محفظتها فثمة واجبات مدرسية تنجزها ، في هذا المساء ونحن ننعم بنسائم الهواء المعطرة بشذى الرياحين والأزهار في باحة البيت باغتتني "دعاء" :.

_ تبدين جميلة جدا يا أمي ، أراك تستعيدين لياقتك وحيويتك .

لأرد : واصلي وماذا أيضا في جعبتك من مجاملات مبالغ فيها ؟ هل تمهدين لطلب معين .

نعم هو لك وليس لي . لم لا تعيدين الزواج؟

أطلقت تنهيدة طويلة ، دفعت بأنفاس حارة في ثوب زفرة مؤلمة لأرد عليها مسترسلة:

قد أكون مجحفة في حقك أذا لم أخبرك بأمر حدث معي ، لكنني رأيته لا يستحق أن يكون محل طرح للنقاش فاسمعيني :

ما دمت فتحت الجرح سأتركه ينزف أمامك بلا توقف . هل تذكرين يوم ارتفع ضغطي وحملت على جناح السرعة إلى المستشفى ؟ كان ذلك نتيجة أنني لم أقتنع بأن حظي عاثر ولن تقوم له قائمة تحت ظل رجل مهما فعلت وتنازلت كان "منير" محاميا متدربا في مكتب محاماة تولى أمر قضيتي مع والدك ، يعرف كل التفاصيل بحيثياتها ما بان منها وخفي عن الناس ، وقد أوكل له رئيس المحامين بالمكتب متابعة كل جديد فيها ، يخبرني بمواقيت الجلسات ، ويستفيض بالاستزادة في سماعي لكتابة العرائض والأجوبة، شعرت أنه متعاطف معي بشكل كبير أو أنه يبالغ في الأمر لكنني لم أتبين حقيقة شعوره ، بدأت علاقتنا تنحى نحو الجدية والاهتمام المتبادل ، لتخرج من بين جدران المكتب ... كنا نتواعد على

لقاءات في أماكن متعددة في عفوية وتناغم و كنت أؤكد عليه بأن لا يخطو أي خطوة إلا بقناعة منه لأن الوضع حساس جدا حيث لم يسبق له الزواج بينما أعد في تعداد المطلقات وببنت أيضا ، ولذا دائما كنت أكبح جموحه واندفاعه ، حتى يقف على أرضية صلبة قبل أي قرار يتخذه ، كان همي البحث عن ظل رجل يحتويني وينتشلني من صفة المطلقة ، هذه العثرة التي تجعلتني في نظر المجتمع لقمة صائغة، تبتلع دون عناء كبير ، وهي حقل للحرمان فلا تتوانى في الانصياع بلا تردد .

لم أر منه ما يدعو للريبة والشك ، بل كنت أشعر باطمئنان كبير ما لم تتوفر لي أسبابه مع أحد ، حدثني أنه كلم أمه في موضع رغبته في الزواج مني ، فأبدت معارضة شديدة وهي تحتكم لعرف مجتمع وكيف ينظر إلى هذا الزواج غير المتكافئ ، كيف له أن يتزوج مطلقة بابنة وكهول وشيوخ يتطلعون إلى فتيات ما دون العشرين ، لكنه ظل يصدع رأس أمه بالموضوع من جهة ، و يدعوني أن أصبر قليلا وأعطي فسحة أكثر للوقت ليبدد رفضها ، بيدا أن الشيطان في المرأة العجوز يثور من سباته ليكشف عن وجه من البشاعة والقسوة وينسف كل شيء بتدبير محكم في لحظات ، أوهمته أنها مستعدة لمناقشة الأمر لكن عليها أن تراني مسبقا قبل أي خطو تخطوها اتجاه أهلي ، فعرض عليها اللقاء في مكتبه ، لكنها فضلت أن يرشدها على مكان عملي لتلتقي معي ، فوقع الاتفاق على أن يكون في " بيزيريا " قبالة المدرسة ، لأنها تحب السرية والكتمان في مثل هذه المرور ، فقد أخبرني والفرحة تتملكه ، واهما أنه استطاع أن يذيب جبل الجليد ، وانصاعت لرغبته وإرادته عن طيب خاطر وأكدت

على مجيئها في المكان والزمان المعينين . في صباح ذلك اليوم فتحت خزانتي ولبست أحلى فستان ، وتزينت بشكل غير مبالغ فيه حتى لا أبدو متبرجة، واشتريت لها هدية تمثلت في زجاجة عطر ووشاح ومصحف كريم، كنت في طريقي أرتب كلماتي وأحفظها كي لا أقع في ارتباك أمامها، سأخبرها أني لست سيئة ولا أتحمل وزر طلاقي، وابنها يعرف كل التفاصيل، وإلا ما فكر في الزواج مني ، سأقول لها أن حظي ساقني في طريق رجل لم يرحمني لكن القدر اقتص لي منه ، وفي ذلك إنصاف خفف من وجعي وعبرة لكل ظالم آثم.

جاءت إلى المدرسة قبل الموعد وفي ساعة الذروة ، أين ينتشر التلاميذ في الساحة ، وينعم الأساتذة لراحة عمرها دقائق معدودات ، سألت عن اسمي في الحاجبة وادعت أنها أم تلميذ استدعيت من طرفي لأمر لا يقبل التأخير ، رافقها العامل إلى قاعة الأساتذة وهو يشير إلي بسبابته فتتقدم لتباغتني :

-أنت الأستاذة "حنان".

فزعت في بداية الأمر واعتقدت أنني سأكون متهمة بالعنف الجسدي على تلميذ فرحت في ثوان أعود بالذاكرة إلى الوراء فلم استحضر أي عنف مارسته .

-نعم أنا الأستاذة حنان.

لم تكن تأبه بإجابتي فاستدارت نحو جمع الأساتذة وهي تقول بصوت مرتفع:

-هل تقبلون يا أساتذة أصحاب العقول النيرة أن أرمى في الشارع من طرف ابني لأنني رفضت أن يتزوج من مطلقة ببنت ؟ إنه وحيدي وفلذة كبدي ، أعزب لم يسبق له الزواج .

ثم تلتفت نحوي قائلة:

ألا تستحي و تطمعين فيما ليس لك ؟ ، لقد جندت أباك الساحر والمشعوذ فأعمى بصيرة ابني ، لن أسامحك ، لن أسامحك ، قلبت علي الهدوء في بيتي جحيما ، وأحدثت شرخا من الكراهية بيني وبين ولدي. اقتربت حشود التلاميذ من النوافذ وباتت مأساتي فرجة بالمجان .

لا أعرف ما قالت بعدها لأنني سقطت مغشيا علي ، واستسلمت للاوعي لأجد نفسي في المستشفى تحت العناية ، وحقنت في ذراعي بمهدئات ومحاليل لتخفيض الضغط ، استعجلت الخروج من المصحة مساء ، عدت إلى البيت كما تذكرين في حالة يرثى لها ، وغبت عن المدرسة أسبوعا كاملا وكدت حينها أن أقدم استقالتي فلم تترك لي وجها أقابل به زملائي ، ولا يعرف أحد سبب دخولي المستشفى غيرك الآن ، فأهلي كانوا يعتقدون أنه ضغط مرتفع مفاجئ للدم. اعتقدت وقتها أنني ختمت بالشمع الأحمر على الموضوع ، ولم تعد لي رغبة إثارته مرة أخرى لكنني حاولت تجديد جلدي كما يفعل ثعبان إذا ضاق به ، فقد ضاقت علي الدنيا وكتمت أنفاسي، ولم يكن لي حظ في الخروج أو الفسحة ، فأنت تدركين ارتباطي بالعمل وأشغال البيت التي لا تنتهي ، والاهتمام بمتطلباتك ، كانت غرفتي بثقل رهبتها موطن عزلتي فتطبق على أنفاسي بلا رفق ، فافتح كوة صغيرة من خلال موقع للتواصل الاجتماعي ، وجدت هذه الكوة أصبحت

نافذة تتوسع يوما بعد يوم وتشدني إليها أكثر ، تعرفت على شاب يصغرني بسنتين ، فتحت له باب قلبي فوجدته يصغي إلي باهتمام بالغ ويواسيني ، كما يزف قوافل الأمل محملة تتلمس طريقها في بيدائي ، تكررت هذه الإطلالة بين ضفتين متباعدتين ، تصبغ أيامي بدردشات تتعدى الهزيع الأخير من الليل أو تلامس الخيوط الأولى للشمس ، كان يحملني على أكف الحديث كفراشة يحرص على صيانة هشاشتها ، يخفض لي جناحه ليحلق بي في عوالم تنسيني عذبات واقعي ، تواعدنا على لقاء بساحة كبيرة تتبع مقهى انتشرت عليها طاولات حمراء كزنابق في حقل ، تقابل العشاق فيها على الكراسي كفراش يلثم كؤوس العصير ، كان الحديث أقرب إلى الهمس تتقلص المسافة بين رأسين بانحناءة ظهر ثم تبتعد ، وأحيانا تتطلع العيون إلى ما حولها وكأنها تستشعر وجود من ينغص هذا اللقاء وهو يرصده بغية الإبلاغ عن تهمة العشق.انتهى الموعد وأنا أشعر بخفة ، وكأنني تخلصت من وزني الزائد فجأة دون اللجوء إلى حمية ، مد يده لأطراف أصابعي مودعا ومرسلا بالون اختبار يقيس درجة تفاعلي مع أول لمسة منه ، تكرر اللقاء الثاني لكن في مكان آخر حسب رغبته وفر له أن تستريح يدي بين كفيه الدافئتين، وقبل أن ننصرف طلب مني مبلغا من المال مدعيا أن بطاقته للسحب المغناطيسي فقدت صلاحيتها ويحتاج إلى المال ، لم أتردد فرافقني حيث سحبت له ما أراد ، لأجده أمام بوابة ا لمدرسة في اليوم الموالي يرد المبلغ شاكرا
توقفت عن الكلام فجأة فقد وصلت إلى ما يكون غصة في الحلق ، لتفرك

ابنتي عيناها أكثر وتحملق في وجهي لأفهم أنها تريد سماع ما تبقى لأسترسل:

كان يتاجر في السيارات كما فهمت من كلامه ، ظل يحرص على صفاء الود بيننا ، و كنت أستشعر أنه حريص كل الحرص بأن يرسو بهذه العلاقة على بر الأمان ، ليكلمني في الهاتف ذات مرة مستعجلا :

_أوشك على إبرام صفقة تتعلق بشراء سيارة فخمة تدر علي أرباحا كبيرة.

كان ما طلبه يفوق قدراتي بكثير ذهبت إلى خالك لم يسألني حتى فيما أصرفه ليخرج المبلغ من خزنته في حينها، بينما انتظرني خارجا لاستلامه، بقيت أنتظر أن ينعم بهذا الربح الوفير ، وأن أكون وجه فأل عليه ورحت أقتنع في قراراتي نفسي بأن أسنده وأدعمه ، فقد كان لي خير مؤنس ومواس في وحدتي ، وقد استطاع أن يخرجني من عزلتي وقنوطي ، وأنا ممتنة لصنيع جميله معي ، بدأ موعد إرجاع المبلغ يتآكل نقف على عتبته ،وموعد للتسديد ، ومهلة أخرى ، كل هذا كان يضعه لنفسه دون ضغط مني ، و يسوق مبررات تهاوي أسعار السيارات، لأستيقظ ذات صباح أمام جدار مسدود.

ثم ماذا يا أمي ؟

لا شيء يا"دعاء" هذا هو الشمع الأحمر الذي ختمت به موضوع الزواج .

وكيف كانت النهاية ؟

النهاية كباقي النهايات ، لا تخطئ السكينة موضع جرح قديم لتزيده ألما ونزيفا ، مثله كأي عابر في حياتي ، يجلسني على شاطئ فيبني لي قصورا رملية تستفز أحلامي ما تلبث أن تتهاوى أمام عيني ، ويمضي في طريقه

بعد تمتع بفرصة عبث بمشاعري ، لقد تخلص من شريحة هاتفه وأغلق حسابه في موقع التواصل ، ويمكن أن يكون منتحلا لشخصية ليست له ، هذا كل ما في الأمر، أو أنه يبحث عن ضحية أخرى لا تقل بلاهة وسذاجة مثلي .

طأطأت " دعاء" رأسها ولم يعد لها أن تعقب بشيء يستحق ، زحفت على ركبتيها مقتربة وطبعت على عيني عدة قبلات ، ففيها عزاء كبير لامرأة لم تجد من يلملم بقاياها على قدر تنازلاتها وتضحياتها ، لا أملك عصا سحرية كفيلة بأن تغير مجرى حياتي ، ولا أملك أن أغير العالم من حولي ، مجتمع يحرص على نظارة الواجهة و يمارس طقوس الرذيلة وراءها ، يخاف وجهه في مرآة الآخرين أكثر مما يخاف خالقه ، كنت أتقزز من نساء وهن يتجاوزن حدود العرف والمنطق في مبالغة لا أراها مبررة ، يعمدن إظهار الاحتفال بالطلاق بغبطة وسرور على مواقع التواصل الاجتماعي ، لكنني أعتقد أن الأمر يستحق الاحتفاء بهذه السكينة التي أصبحت تطبع حياتي ، لولا هواجس صحية أصبحت تؤرقني ، فمشكلتي مع النوم مازلت تلازمني حيث أنام لساعتين أو ثلاث ، بعدها أبقى مستيقظة أتقلب يمنة ويسرة ، عسى أن أظفر بغفوة أخرى في ليل طويل ،تراوح التشخيص بين مرض اضطراب النوم ، وضيق التنفس أثناءه مما يؤدي إلى صعوبة الانغماس في سبات ملء الأجفان ، لم تنعم "دعاء " كثيرا بالرضاعة عدا عدة أشهر، واستأثرت بنهد واحد بينما ظل الآخر يحبس عنها حليبا و لم يعد يدر شيئا، من أيام ذكرني بحرمانه لها ، حين أصبحت أحس

بشرارة خاطفة من الألم ، كما يتوهج بحمى غير مسبوقة ، فأضحى الأمر يقلقني ولا بد من عيادة طبيب مختص.

لم يعد الرجل يتصدر أولوياتي ولا يجد له ترتيبا في ذيليها ، هكذا بات الشعور يؤسس ليومياتي ، فلم تعد له مكانة في كياني ولم أعد أتخيله كثعبان يتلوى على جسدي بحفيفه ، عكفت على المطالعة والكتابة في آن واحد ، ووجدت أن مغازلة قلمي لأوراقي فيه متعة كبيرة ، فرحت أجمع شتات ذاكرة توزع رصيدها على محطات كثيرة في حياتي ، وأحفظ من الزوال شيئا من سيرة أمي، أرصد ما حولي بوعي وبدونه ، ولا أعرف ما يخفيه المستقبل ، وعزمت على قطيعة مع الماضي إلا ما رحت أخطه على هذه الصفحات.

... بعد ساعة امتلأ البيت يجمعنا والداي ،أخي ، وأخوتي وأبناؤنا.

تم

" حنان"

صيف ٢٠١٤

بعد عام.

كان الجو باردا في الخارج ورذاذ المطر يبلل أسطح البنايات في مدينة احترف أهلها نعمة النسيان ، قبعت دار النشر بقلبها النابض يدثرها دفء الأوراق وتستدفئ بوهج الحروف ، تحارب النسيان في الذاكرة فتعلو الكلمة على منبرها لتؤذن في الناس أن الصمت لعنة ، وأن البوح رديف لصخب الحياة .

اجتمع طارق و مراد في هذا الصباح يعدان برنامج عملهما ، ليسمعا طرقا خفيفا فيصدر مراد صوتا يأذن بالدخول ، فتدلف الباب فتاة في مقتبل العمر ، يبادرها بالترحيب كعادته بطيبة وعفوية .

مرحبا بنيتي تفضلي (مشيرا إليها بالجلوس)

يحدق طارق في وجهها وهو يسبر أغوار ذاكرته ، وقبل أن ينبس بكلمة تلتفت إلى مراد لتسبقه قبل أن يبلغ السؤال مبلغ الحلق والشفتين .

أنا دعاء ابنة حنان .

لتردف: الأستاذ طارق يعرفني رافقت أمي ذات يوم واستقبلنا هنا.

طارق: اعذريني ، غيبت ملامحك ووجدت أنك تغيرت بعض الشيء ، لو لم تقدمي نفسك ما كنت أعرفك .

لترد : هموم الدنيا سيدي ، حسنا أختصر ، جئت لأجل مخطوط أمي قررت أن أطبعه.

مراد : أين أمك من الضروري أن تحضر.

دعاء : يستحيل حضورها ،

مراد : كيف ؟

دعاء: ماتت ... دوما كانت ضحية لخيانات مفاجئة ...خانها نهد فماتت.

حين جاءت هنا كانت بداية معاناتها مع سرطان الثدي لكنها تخفي الأمر.

يتجمد طارق في مكانه ، الله أكبر ...يتذكر مكالمته الوحيدة في الهاتف حين أخبرته أنها تعاني من وعكة صحية.

يعظمان لها الأجر في مصابها ويدعوانها للصبر والامتثال لإرادة الله.

لتضيف :إذا حظي بالقبول ما كتبت أمي وتقرر نشره أريد أن يكون بعنوان " امرأة على قيد سراب"

****

تمت بحمد اللّه

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني محفوظة للناشر